لغة عربية

فن النـادرة عند الجاحظ



دكتور

علي محمد السيد خليفة

كلية الآداب بالعريش - جامعة قناة السويس

كلية التربية والآداب بتربة - جامعة الطائف

فن النــادرة عند الجاحــظ

د. علي محمد السيد خليفة

كلية الآداب بالعريش – جامعة قناة السويس

كلية التربية والآداب بتربـة – جامعة الطائف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴾

"سورة النجم: الآيتان **43**، **44**"

الإهـداء

إلى أخى الحبيب الأستاذ الدكتور/

صــلاح منـــاع

الذى حثنى على كتابة هذا الكتاب،

وأرجو أن أكون عند حسن ظنــه

المقدمـــة

هناك كتب كثيرة ودراسات عديدة تناولت الأدب الفكاهى فى كتابات الجاحظ. وهذا الكتاب لا شك أنه يدور فى تلك الدائرة، ومع ذلك فلعل الجديد فيه أنه يهتم على وجه الخصوص بفن النادرة عند الجاحظ.

ويظهر فى هذا الكتاب أن الجاحظ إلى جانب ما نسب له من أنه واضع مبادىء علم البلاغة وعلم المناظرة، وعلومًا أخرى، فإنه أيضًا كان أول من حاول أن يقنن للنادرة، وإن كان حديثه عنها يأتى –غالبًا – خلال استطراداته وتعليقاته على بعض النوادر.

وحاولت فى هذا الكتاب جمع أقواله فى النادرة، ورأيت أنها أشبه ما تكون بالنظرية، وكذلك درست نوادره التى ذكرها فى كتبه.

وأرجو أن أكون بهذا قد كتبت جديدًا يضاف للكتب والدراسات العديدة عن أديب العربية الأكبر – فى العصور القديمة على أقل تقدير – أبى عثمان الجاحظ.

والله نعم المعين

على خليفة

شهرة الجاحظ قديمًا وحديثًا بكتاباته الفكاهية وقدرته الكبيره على السخرية

لعل أبرز صفة فى شخصية الجاحظ هى ميله للفكاهة والسخرية، وانعكست هذه الطبيعة فيه على أدبه، حتى ما يكاد يخلو كتاب من مؤلفاته من وجود هذا الروح الساخر فيه.

وقد أشار كثير من معاصرى الجاحظ، ومن غير معاصريه من النقاد والكتاب القدماء إلى وجود طبيعة الفكاهة عنده، وقدرته العالية على السخرية، فها هو ذا أبو هفان قيل له: "وقد طال ذكر الجاحظ له لم لا تهجو الجاحظ، وقد ندَّد بك، وأخذ بِمُخنَّقك فقال: أمثلى يُخْدَع عن عقله، واللّه لو وضع رسالةً فى أرنبة أنفى لما أمستْ إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنَّ منها بيت فى ألف سنة"[1].

وجاء فى معجم الأدباء أن للجاحظ كتبًا كثيرة فى ضروب من الجد والهزل[2]، وجاء فيه أيضًا على لسان ثابت قرة أن الجاحظ "إن هزل زاد على مُزَبِّد"[3] أحد المضحكين المشهورين فى العصر العباسى الأول.

---

(1) ياقوت الحموى: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب). تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط1، 1993م، 2114/5.

(2) المصدر السابق، 2102/5.

(3) المصدر السابق، 2113/5.

وقد استغل بعض خصوم الجاحظ قديمًا ميله للفكاهة فى حياته، وانعكاسها على مؤلفاته – فوصفوه بالمجون والعبث، يقول ابن قتيبة عن الجاحظ ساخرًا منه: "وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث، يريد بذلك استمالة الأحداث، وشراب النبيذ"[1].

ويشايع بعض المؤرخين والكتاب القدماء ابن قتيبة فى الهجوم على الجاحظ لميله للفكاهة فيصفه بعضهم بالمجون[2].

وبعض المستشرقين فى العصر الحديث لم يلتفتوا لما وراء فكاهات الجاحظ فى كتبه، من سخرية ببعض أوضاع عصره وبعض فئات من مجتمعه، ولم يلتفتوا لكون الجاحظ له نظرية فى الفكاهة عرضها مفرقة فى كتبه ورسائله، ولكن الذى رأوه فى كتب الجاحظ التى وصلتنا أنها مليئة بالفكاهة والتسلية الرخيصة على حد قولهم ووصفهم.

فيقول نكلسن عن الجاحظ: "وقد وضع عدة كتب طابعها إيراد النكات والتسلية"[3].

---

(1) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1405هـ/ 1985م، ص58.

(2) انظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء. أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط. حقق الجزء الحادى عشر: صالح السَّمر. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1402هـ/1982م، 527/11.

(3) رينولد. أ. نكلسن: تاريخ الأدب العباسى. ترجمة وتحقيق: صفاء خلوصى. بغداد، المكتبة الأهلية، مطبعة أسعد. د.ت، ص140.

ويقول كارل بروكلمان عن الجاحظ: "وكان مقصد الجاحظ من مزاولة الكتابة والتصنيف هو التسلية والمسامرة أكثر من الإفادة والتعليم"[1].

وكذلك يقول ت. ج. دى بور عن الجاحظ: إنه كان أديبًا ظريفًا[2]، وكان حظه من النبوغ أيضًا متوسطًا، وإنما كان الجاحظ مؤلفًا مكثرًا، فلم يتجاوز الوسط إلا فى كثرة تأليفه[3].

ونظنن أن هؤلاء المستشرقين لم يتأملوا ما وصلنا من كتب الجاحظ ورسائله بعناية فائقة؛ ولذا لم يقدروا الجاحظ حق قدره، ولم يفهموا ما وراء فكاهات الجاحظ العديدة فى كتبه من نظرة ناقدة للحياة، ولم يدركوا أن للجاحظ نظرية فى الفكاهة سنعرض لها فى هذه الدراسة.

وكذلك لا نستبعد أن يكون بعض هؤلاء المستشرقين حانقين على الجاحظ لكونه أحد القمم الشامخة فى تراثنا القديم، وهم يحاولون بالتهوين من قدره ضربنا فى جذورنا حتى

---

(1) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى. نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار. القاهرة، دار المعارف، ط5، 1991م، 107/3.

(2) ت. ج. دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام. نقله إلى العربية وعلق عليه: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة، مكتبة النهضة المصرية، ط5، ص112.

(3) المرجع السابق، ص113.

نكون تابعين لهم ولثقافتهم فى كل شىء.

أما عن النقاد والكتاب العرب – فى العصر الحديث – فإنهم – أو كثيرًا منهم – أدركوا براعة الجاحظ فى كتاباته المشبعة بروح الفكاهة، وأعدوا كتاباته النثرية ذات الحس الفكاهى فنًّا جديدًا أتى به الجاحظ، أو هى رافد جديد للنثر الفنى العربى فى العصر العباسى.

يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع: "ولم نعرف بين كتاب العربية من دانى أبا عثمان فى ضحكه ومرحه ولعمرى إنها لظاهرة جديدة فى النثر العربى، ولم تشع بعده إلا بنفثة من سحره وقوة من روحه"[1].

وفى موضع آخر، يقول الدكتور عبد الحكيم بلبع عن فكاهة الجاحظ وسخريته وتهكمه: "ولعل من أهم الظواهر الفكرية التى تميز بها والتى تلفت النظر ظاهرة التهكم الممزوج بروح العطف والشفقة البعيد كل البعد عن معانى الحقد والتشفى والانتقام، فالجاحظ لم يكن يفارقه الابتسام حينما يسخر من بخلائه ويتهكم من أشراره وحمقاه، ولم يكن يفقد حبه للناس حينما يسخر من عيوبهم، ويكشف أمامهم سلبياتهم حتى

(1) د. عبد الحكيم بلبع: النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه. القاهرة، لجنة البيان العربى، مطبعة الرسالة، 1969م، ص274.

يجتهدوا فى الخلاص منها، ولكنه كان فى كل ذلك إنسانًا عطوفًا يمتلىء قلبه بالحب والشفقة على هؤلاء الضعفاء"[1].

ونختم حديثنا عن شهرة الجاحظ بالظرف والفكاهة فى طريقة حياته وفى مؤلفاته بذكر رثاء أبى شراعه القيسى للجاحظ، فقد أكد فيه على ظرف الجاحظ، وانعكاس هذا الظرف على مؤلفاته، يقول:

"فـــى العلـــم للعلمـــاء إن   يتفهمـــــوه مـــــواعظُ
وإذا نســـيت وقـــد جمعـــت   عـــلا عليـــك الحـــافظ
ولقـــد رأيـــتُ الظّـــرف دهـــرًا   مـــا حـــواه اللافـــظ
حتـــى أقـــام طريقـــهُ   عمـــرو بـــن بحـــر الجـــاحظ
ثـــم انقضـــى أمـــدّ بـــه   وهـــو الـــرئيس الفـــائظ"[2].

العوامل التى جعلت الجاحظ يميل للفكاهة فى حياته وفى مؤلفاته

هناك عوامل كثيرة أثرت على الجاحظ فى ميله للفكاهة فى تعامله مع الناس فى عصره، وفى بروزها بشكل قوى – تقريبًا – فى كل مؤلفاته.

---

(1) د. عبد الحكيم بلبع: بين الأدب والنقد، مجموعة مقالات وبحوث. جمعها وحرَّرها وقدّم لها: د. مهدى علام. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م، ص12.

(2) معجم الأدباء، 2122/5.

ونحن نذكر هنا هذه العوامل.

1- ميل الجاحظ للفكاهة فطرة فيه قبل كل شىء

لقد كان "المرح جزءًا أساسيًّا فى التكوين النفسى للجاحظ، ولم تكن فكاهاته مصطنعة، ولم يكن يتظرف بإيراد الطرائف ورواية النوادر، بل كانت هذه الطبيعة المرحة تغالبه فى سائر كتاباته"[1].

ويقول الدكتور طه الحاجرى عن السبب الرئيس لميل الجاحظ للفكاهة والظرف: فأكبر الظن عندنا أن ميل الجاحظ إلى السخرية وما إليها إنما جاء – أول شىء – من هذه الطبيعة المرحة المنبسطة الضاحكة، ثم من أنه – إلى هذا – رجل سهل الجانب لين الحاشية محب للناس عطوف عليهم[2].

وكذلك يقول محمد كرد على عن ميل الجاحظ للفكاهة وحبه للمرح: "أما أخلاقه ومزاجه، فما كان بالسوداوى ولا بالعصبى، وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور، لا بعين المغيظ المُحنق، يبدو السرور عليه إذا

---

(1) د. أحمد عبد الغفار عبيد: أدب الفكاهة عند الجاحظ. مطبعة السعادة، ط1، 1402هـ/ 1982م، ص53.

(2) د. طه الحاجرى. مقدمته لكتاب البخلاء للجاحظ. القاهرة، دار المعارف، ط9، 1990م، ص54.

خطب وإذا كتب حتى تغمره الغبطة، وتعتاده الدعابة، وخفة الروح فيه جبلَّة"[1].

ونستشف من بعض كتابات الجاحظ أنه كان يحب الفكاهة، ويستريح للمرح والسرور، فى حين كان ينزعج من الكآبة والجد الصارم الزائد عن الحد، فيقول عن أثر النبيذ فى رسالة وجهها للحسن بن وهب: "إنك ما دمت تمزجه بروحك، وتزاوج بينه وبين دمك فقد أعفاك من الجد ونَصَبه، وحبَّب إليك المزاح والفكاهة"[2].

وتشهد مؤلفات الجاحظ التى وصلتنا أن الجاحظ كان يمتلك قدرة كبيرة على الظرف، وقدرة كبيرة على اكتشاف الجوانب المضحكة فى طباع الناس ووسائل حياتهم.

ولا يمكن أن تكون هذه المؤلفات ذات الصبغة الفكاهية الواضحة إلا من تأليف شخص مفطور على الفكاهة والسخرية[3].

---

(1) محمد كرد على: أمراء البيان. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355هـ/1937م، 322/2

(2) الجاحظ: رسائل الجاحظ. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. من رسالته فى مدح النبيذ وصفة أصحابه للحسن بن وهب. القاهرة، مكتبة الخانجى، د.ت، 121/3.

(3) يقول روجر. م. بسفيلد "الابن": إن إثارة الضحك عمل شاق يتطلب الكثير من الإتقان والإحكام، ولا بد أن يكون القائم به على قدر عظيم من حاسة=

2- قبحه وشوهته

جاء فى بعض المصادر القديمة أن الجاحظ كان أسود مشوّه الخلق[1]، حتى لتروى نوادر تسخر من شوهته وقبحه[2].

ولكن الدكتور شارل بللا يدعونا للحذر حين قراءة هذه النوادر المبثوثة فى بعض الكتب المتأخرة عن عصر الجاحظ، التى يسخر فيها من شكل الجاحظ القبيح، يقول: "ويجدر بنا فى هذا المجال ألا نبالغ فى قبح الجاحظ، فإن تاريخ الأدب القديم قد رسم للجاحظ صورة ليس فيها شىء من الأناقة. إن الجاحظ قد خلد ذكره أسلوبه الكتابى الناصع الطريف، ثم جاء الأدب الشعبى فاستغلّ فكرة ميل الجاحظ للدعابة والتهكم ليجعل منه بطل هذا الأسلوب أو راويًا للنوادر المستملحة، كما استغل هذا الأدب

=الضحك والإحساس المرهف بمصادر الفكاهة. انظر: روجر. م. بسفيلد (الابن): فن الكاتب المسرحى للمسرح والإذاعة والتليفزيون والسينما. ترجمة: درينى خشبة. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1964م، ص253.

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. حققه: د. إحسان عباس. بيروت، دار الكتب العلمية، دار صادر، د.ت، 471/3.

(2) انظر: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق. دراسة وتحقيق: محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمروى. دار الفكر، ط1، 1417هـ/1996م، 436/45، وابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم. دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1412هـ/1992م، 94/12- 95.

الشعبى شكله ليغذى موضوع القبح، حتى نسب إليه دون حياء اعترافه بقبحه، فى حين أنه – على حد علمنا – كان لا يحب الرمز إلى هذا النقص الخَلْقى فيه"[1].

ومهما يكن الأمر، فلا شك أن شكل الجاحظ كان به قدر من القبح فى جحوظ عينيه، وقصره على الأقل.

وقد أراد الجاحظ أن يعلو على هذا القبح الذى قد ينفّر بعض الناس منه – كما يروى فى صرف المتوكل للجاحظ بعد أن استدعاه لتأديب بعض ولده حين رأى قبحه[2] – من خلال ميله للظرف والفكاهة، فكأنه يقول لمن يتعامل معهم فى حياته ولمن يقرءون كتبه، انظروا إلى ما لدىّ من علم ومعرفة، وما أملكه من طبيعة مرحة، فهذه المداخل الحقيقية لشخصيتى، وليس شكلى.

ونرى الجاحظ فى نادرة – كأنه يتحدث فيها عن نفسه – يذكر شخصًا أثر فى فتيات جميلات وملن إليه – على الرغم من بعض العيوب الشكلية فيه – لظرفه، أكثر من فتيان آخرين كانوا ذوى وسامة وجمال، وهاهى ذى تلك النادرة.

---

(1) د. شارل بللا: الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء. ترجمة: د. إبراهيم الكيلانى. دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، 1961م، ص101.

(2) انظر فى هذا: وفيات الأعيان، 3/271.

"ومن الحُدب: مُشمرخُ الأحدب، قال ثمامة لى: رأيت جماعة نساءٍ لم أر قطُّ أحسنَ ولا أملحَ شكلاً، ولا أظهر دَلاًّ، مع لباسٍ وشارةٍ، وإذا فتيانٌ من فِتيان الغَزَل والجَمَال واليَسار قد عارَضُوهنّ، والتفتُّ فإذا أنا بالمُشَمرخ الأحدب، وإذا هو يتقدَّمهنَّ مَرّةً ويُزاحمهن مَرة، وإذا هو فى ذلك يختال فى مِشيتِه ويَخطِر بكُمَّيه، فأقبَلتْ عليه واحدةٌ منهنَّ فقالت: عَذَرنا هؤلاء الذين يُدِلُّون بالشَّباب والجَمال واليَسار، فقد أطمعهم ذلك فينا، وأنت بأى شىء تُدلّ؟ قال: بالبَزَاعة[1] والظَّرْف! قال: فضحكن منه وصار أكثر كلامهنَّ معه دون سائر الناس وغلب عليهنّ وشغَلهنَّ"[2].

3- تأثره بأمه التى كانت تمتلك روح الدعابة

ومن خلال إحدى الروايات نستشف أن أم الجاحظ كانت تمتلك روح الدعابة والسخرية، وها هى ذى تلك الرواية.

"ورُوى أنه كان فى حداثته مشتغلاً بالعلم وأمّه تموّنه فجاءته يومًا بطبق عليه كراريس فقال: ما هذا؟ قالت: هذا الذى تجىء

---

(1) البزاعة، بالزاي المعجمة: الظَّرف والملاحة وذكاء القلب. بَزُع بضم الزاى بزاعة فهو بزيع وبُزاع بالضم.

(2) الجاحظ: البرصان والعرجان والعميان والحولان. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط1، 1410هـ/1990م، ص406.

به، فخرج مغتمًّا وجلس فى الجامع ومويس بن عمران جالس فلما رآه مغتمًّا قال له: ما شأنك؟ فحدَّثه الحديث، فأدخله المنزل وقرّب إليه الطعام وأعطاه خمسين دينارًا، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره وحمله الحمالون إلى داره فأنكرت الأم ذلك وقالت: من أين لك هذا؟ قال: من الكراريس التى قدمتها إلىّ"[1].

ولا شك أن الجاحظ قد أخذ عن أمه ميلها للدعابة والسخرية.

4- اختلاطه بالبيئات المختلفة وبخاصة الفقيرة

نشأ الجاحظ نشأة فقيرة، فقد قيل إنه كان فى صغره – وربما فى شبابه – يبيع الخبز والسمك بسيحان[2]، والرواية السابقة له مع أمه تدل أيضًا على فقر أسرته وأنه كان يعول هذه الأسرة.

ولا شك أن اختلاط الجاحظ بطبقة الشعب الفقيرة، قد جعله يدرك الكثير من حياة هؤلاء الناس الفقراء، وكيف أنهم يتغلبون على كثير من متاعب الحياة بالفكاهة والنادرة، وقد أفاد الجاحظ من نشأته فى هذه الأوساط الفقيرة فى أدبه بأن

---

(1) أحمد بن يحيى المرتضى: طبقات المعتزلة. تحقيق: سوسنة ديفيلد فلنر. بيروت، ط2، 1407هـ/1987م، ص68.

(2) معجم الأدباء، 2101/5.

صور حياة الناس البسطاء، وما فيها من جوانب تدعو للسخرية أو للضحك أو للعبرة أو لغير ذلك، يقول توفيق الحكيم عن الجاحظ:

"إن هذا الكاتب شعر فيما يبدو لى بالغلطة. فسلك مسلكًا آخر. ونزل إلى الشعب يستوحيه، ويصور أسواقه وبخلاءه ولصوصه وتجاره وشرفاءه وخبثاءه ... فى أسلوب بسيط حى يعدّ مثلاً طيبًا للنثر التصويرى فى عصور الحضارة أو العمران ... وهو بعينه الأسلوب الذى أثار على الجاحظ المسكين نقد المتنطعين من أدباء عصره فرموه بالعامية والركاكة والابتذال"[1].

وحين صار الجاحظ كاتبًا كبيرًا واتصل بكبار رجال الدولة العباسية كالمأمون والمعتصم وابن الزيات وابن أبى دواد – لم تنقطع صلته بالبسطاء من الناس، كما نرى هذا فى كثير من الأخبار التى يعرضها لنا فى كتبه وبخاصة كتاب الحيوان[2].

ومعرفة الجاحظ لطبقات الشعب المتنوعة ومعايشته لها جعلته يدرك ما يضحك كل طبقة من هذه الطبقات، وجعلته يدرك العيوب التى فى كل طبقة من الطبقات، وكيف يمكنه أن يسخر منها بغرض التوجيه والنصح لها.

---

(1) توفيق الحكيم: زهرة العمر. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط1، 1975م، ص137- 138.

(2) الجاحظ: الحيوان. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، 1408هـ/1988م، 28/3؛ 168/5.

5- ما فى عصره من أوضاع مضطربة

وقد كان عصر الجاحظ فيه بعض الأمور المضطربة، وكان من أبرزها الحرب التى دارت بين الأمين والمأمون، وانتهت بمقتل الأمين وتولى المأمون الخلافة، فقد كانت بلاد العراق وما حولها فيها اضطراب سياسى واجتماعى واقتصادى، وتأثرت حياة الناس بتلك الحرب تأثرًا كبيرًا.

وكذلك كانت هناك أحداث أخرى كثيرة لعلى تعرضت لها – أو لكثير منها – فى رسالتى للدكتوراة عن أدب الجاحظ فى صلته بتيارات عصره السياسية. وقد انعكس هذا الاضطراب الذى شهده الجاحظ فى فترات من حياته على ميله للفكاهة والسخرية. يقول الدكتور نشأت العنانى: "هذا المجتمع المتقلب، المائج المضطرب، الملىء بالمتناقضات: غنى فاحش وثراء عريض، بجانب فقر مدقع وإملاق مقيت، تقوى وزهد، إلى جوار انحلال وفسق، صلاح فى ثياب فساد، وفساد فى إهاب صلاح، مجتمع يثير العجب، ويدفع للسخر"[1].

---

(1) د. نشأت العنانى: فن السخرية فى أدب الجاحظ. مطبعة السعادة، ط1، 1400هـ/1980م، ص96.

6- تأثره ببعض شيوخه الظرفاء

وبعض شيوخ الجاحظ – كالنظام والأصمعى وثمامة بن أشرس – كانت فيهم دعابة، من خلال النظر لبعض الأخبار التى تروى عنهم[1].

وقد انعكست هذه الطبيعة المرحة فى هؤلاء الشيوخ على الجاحظ.

وكان ثمامة هو أكبر شيخ للجاحظ يميل للفكاهية، فيروى عنه أنه "كان نديمًا ظريفًا صاحب مُلَح اتصل بالرشيد، ثم بالمأمون وروى عنه تلميذه الجاحظ"[2].

ولا شك أن الجاحظ تأثر بشيخه ثمامة فى ميله للدعابة والفكاهة، كما تأثر به فى قدرته العالية على الجدل، وفى بعض جوانب فكره.

7- تأثره ببعض معاصريه من المؤلفين الذين اهتموا بالفكاهة والنوادر فى مؤلفاتهم

وكذلك تأثر الجاحظ فى ميله للفكاهة وبخاصة فى مؤلفاته ببعض مؤلفات معاصريه التى ورد فيها الكثير من النوادر

---

(1) على سبيل المثال انظر: سير أعلام النبلاء، 10، 204، والخطيب البغدادى: تاريخ بغداد أو مدينة السلام من تأسيسها حتى سنة 463هـ. القاهرة، 1349هـ/ 1931م، 146/7، وطبقات المعتزلة، ص64.

(2) سير أعلام النبلاء، 204/10.

والحكايات الطريفة، ونخص بالذكر معاصره أبا الحسن المدائنى الذى كان غزير التأليف، وتتشابه بعض الموضوعات التى عالجها مع موضوعات عالجها الجاحظ، ولكن لم يصل لنا الكثير من مؤلفات المدائنى، لنقارن بينها وبين مؤلفات الجاحظ.

وعلى كل فقد كفانا المسعودى هذه المقارنة حين قارن هو بين مؤلفات المدائنى ومؤلفات الجاحظ – وكانت كلها تقريبًا بين يديه – بقوله: "ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبًا منه [أى الجاحظ] مع قوله بالعثمانية، وقد كان أبو الحسن المدائنى كثير الكتب، إلا أن أبا الحسن المدائنى كان يؤدى ما سمع، وكتب الجاحظ ... تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ"[1].

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين عقلية الجاحظ وعقلية المدائنى، وطريقة كل منهما فى التأليف، فقد تأثر الجاحظ بالمدائنى، من خلال نقل الجاحظ فى كتبه بعض النوادر عن كتب المدائنى، وهاهى ذى بعض النوادر نسب الجاحظ أصل نقله لها عن أبى الحسن المدائنى.

---

(1) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. بيروت، المكتبة الإسلامية، د.ت، 195/4.

"أبو الحسن قال: سمع رجلٌ بمكّةَ رجلاً يدعو لأمِّه، فقال له: ما بال أبيك؟ قال: هو رجلٌ يحتالُ لنفسه"[1].

* * *

و"قال أبو الحسن: عرض الأسدُ لأهل قافلة، فتبرَّعَ عليهم رجل، فخرج إليه فلما رآه سقط وركِبه الأسدُ، فشدُّوا عليه بأجمعهم، فتنحَّى عنه الأسدُ، فقالوا له: ما حالك؟ قال: لا بأس عليّ، ولكنّ الأسدَ خَرِىَ فى سراويلى"[2].

* * *

و"قال أبو الحسن: شهد مجنونٌ على امرأةٍ ورجلٍ بالزِّناءِ فقال الحاكم: تشهدُ أنّكَ رأيتَه يُدخِله ويخرجه؟ قال: واللّٰه أنْ لو كنتُ جلدةَ استِها لما شَهِدت بهذا"[3].

8- رحلات الجاحظ العديدة

يبدو من خلال النظر فى بعض كتب الجاحظ ورسائله أنه كان قد سافر إلى بعض البلاد، وأنه رافق المأمون فى بعض غزواته[4].

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، د.ت، 282/3.

(2) المصدر السابق، 7/4.

(3) المصدر السابق، 6/4.

(4) رسائل الجاحظ. رسالة مناقب الترك وعامة جند الخلافة، 61/1- 62.

ولا شك أن الرحلات للبلاد المختلفة من مصادر الأديب التى تتطبع فى ذاكرته وتؤثر عليه حين إبداعه، وكذلك يؤثر عليه تأمله للناس فى هذه البيئات المختلفة.

وقد أفاد الجاحظ كثيرًا من بعض رحلاته وجولاته فى بعض البلاد كالشام وسامراء وبغداد، وغيرها، وتأمل طبائع الناس فى هذه البلاد، ومدى ميلهم للفكاهة والمرح، وللأمور التى تضحكهم عن غيرها.

وقد انعكس هذا بالطبع على كتابات الجاحظ الفكاهية، وبخاصة على نوادره.

عرض مؤلفات الجاحظ ذات الطابع الفكاهى

قلنا من قبل: إنه من الصعب أن نجد كتابًا للجاحظ – أو رسالة – يخلو من روح الفكاهة؛ لأن الفكاهة فطرة لديه، وهو يحاول أن يسلّى قارئه ويمتعه ويخرجه أحيانًا من الجو الفكرى الذى يشغله به، من خلال عرض بعض النوادر والحكايات الطريفة، والشعر الساخر.

ولكننا هنا نهتم بذكر كتب الجاحظ التى خصصها لعرض فكاهاته ونوادره ونظريته فى الفكاهة.

وهذه الكتب – بالطبع – تشيع فيها الفكاهة من أولها لآخرها.

ولم تصل إلينا كلها بل وصل إلينا بعضها، ولعل كتاب البخلاء هو أهم كتاب عرض الجاحظ فيه بعض جوانب من نظريته فى الفكاهة، وعرض فيه أيضًا العديد من نوادره وفكاهاته التى صاغها بأسلوبه الشيق البديع.

ويوضح الجاحظ هدفه من وضعه كتاب البخلاء بقوله فى مقدمته: "ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حُجَّة طريفة، أو تعرّف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة. وأنت فى ضحك منه إذا شئت وفى لهو إذا مَلِلت الجد"[(1)].

ويرى الدكتور طه حسين أن كتاب البخلاء من مفاخر اللغة العربية، ولها أن تتباهى به أمام العالم كله، يقول فى ذلك: "وهو من أجود الكتب، ويحق للغة العربية أن تفاخر به. هذا الكتاب جمع فيه الجاحظ أخبارًا تتصل بالبخلاء الذين فى عصره تناول فيه المتكلمين والمعتزلة، وقص من أخبارهم فى البخل أشياء كثيرة. وقيمة هذا الكتاب لا أدرى أهى فى الجمال اللفظى واستقامة المعنى؟ أم فى خصب المعانى، أم فى هذا التصوير الدقيق الذى لا يقاس إليه تصوير، تصوير حياة البصرة وبغداد فى عصر الجاحظ"[(2)].

---

(1) البخلاء، ص5.

(2) د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر. دار المعارف بمصر، 1965م، ص66.

وكذلك من مؤلفات الجاحظ التى خصصها عن الفكاهة، ووصلتنا رسالة التربيع والتدوير، وقد نشرها شارل بللا[1]، وما أكثر الدراسات التى دارت حولها، وأظهرت قدرات الجاحظ الكبيرة فى السخرية، أو الرسم الكاريكاتورى بالكلمات فيها[2].

أما عن كتب الجاحظ التى خصصها كلها – فى ظنى – للفكاهة تنظيرًا ورواية وتأليفًا، ولم تصل إلينا، فمنها كتابه أخلاق الشطار[3]، ويبدو أنه هو نفسه كتاب حيل اللصوص، الذى يشير إليه الجاحظ فى مقدمة كتابه الحيوان[4] وكذلك تعرض له الجاحظ فى كتاب البخلاء بقوله: "ذكرتَ – حفظك اللّه – أنك قرأت كتابى فى تصنيف حِيل لصوص النهار وفى تفصيل حيل سرّاق الليل، وأنك سددت به كل خَلَل وحصّنت به كلّ عورة، وتقدمتَ – بما أفادك من لطائف الخُدع ونبَّهك عليه من غرائب الحِيل – فيما عسى ألا يبلغه كيد ولا يجوزه مكر. وذكرت أن قدرَ نفعه عظيم وأن التقدم فى درسه واجب"[5].

---

(1) الجاحظ: التربيع والتدوير. عنى بنشره وتحقيقه: د. شارل بللا. دمشق، 1955م.

(2) على سبيل المثال انظر تعليق توفيق الحكيم عليها فى كتاب فن الأدب. دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، مطبوعات مكتبة مصر، ص31- 32.

(3) معجم الأدباء، 2120/5.

(4) الحيوان، 3/1.

(5) البخلاء، ص1.

وكذلك من كتب الجاحظ التى اشتملت على الفكاهة فى كل صفحاتها وفصولها ولم تصل إلينا كتاب الطفيليين[1]، الذى فيه – فيما يبدو – يتحدث عن الطفيليين ونوادرهم وحيلهم لحضور الموائد.

وكذلك من هذه الكتب كتاب "نوادر الحسن"[2] ولا ندرى هل هو الحسن بن هانىء أبو نواس، أم هو شخص آخر كان مشهورًا بالنوادر فى عصره؟!

كذلك ينسب له صاحب معجم الأدباء كتابًا بعنوان "المزاح والجد"[3].

ونظن أن هذا الكتاب هو كتاب آخر غير كتاب "الملح والطرف" الذى يشير إليه الجاحظ فى مقدمة كتابه الحيوان التى فيها يستعرض بعض مؤلفاته، يقول: "وعبتنى بكتاب المُلح والطرف، وما حرَّ من النوادر وبرد، وما عاد بارده حارًّا لفرط برده حتى أمتع بأكثر من إمتاع الحار"[4].

ونظن أن هذا الكتاب الأخير هو الذى أشار إليه الإسفراييني وسماه بكتاب المضاحك، ونقل عنه: "وذكر

(1) معجم الأدباء، 2119/5.

(2) المصدر السابق، 2118/5.

(3) المصدر السابق، 2119/5.

(4) الحيوان، 1/3- 4.

الجاحظ فى كتاب "المضاحك" أن المأمون الخليفة كان قد ركب يومًا فرأى ثمامة وهو سكران قد وقع فى الوحل. فقال له: أنت ثمامة؟ فقال: أى واللّه فقال له: ألا تستحى؟ فقال: لا واللّه، فقال: عليك لعنة اللّه. فقال: تترى ثم تترى"[1].

ولعل للجاحظ مؤلفات أخرى احتوت على الفكاهة فى كل صفحاتها، ولكنها لم تصل إلينا، ولا ندرى شيئًا عنها حتى عناوينها؛ لأن الجاحظ كان مؤلفًا مكثرًا، ولم يذكر المترجمون له بعض ما كتبه من مؤلفات.

دفاع الجاحظ عن الفكاهة كأنها قضية كلامية

ظاهرة واضحة للعيان أن الجاحظ كثيرًا ما نراه يدافع عن الفكاهة كأنها قضية كلامية[2] يحاجج عنها، وينتصر لموقفه منها، ومن دفاعه عن الفكاهة قوله: "فالضحك فى موضعه كالبكاء فى موضعه، والتبسُّم فى موضعه كالقطوب فى موضعه"[3].

---

(1) الإسفراييني: التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين. عنى بعرضه وخرج أحاديثه وعلق حواشيه: محمد زاهد بن الحسن الكوثرى. وعنى بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه: السيد عزت العطار الحسينى. القاهرة، مطبعة الأنوار، ط1، 1359هـ/1940م، ص49.

(2) د. وديعه طه النجم: الفكاهة فى الأدب العباسى. مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، ص53.

(3) التربيع والتدوير، ص53.

ويدافع عن مزجه الفكاهات بالمواد الأخرى التى احتواها كتاب الحيوان بقوله: "وهذا كتابٌ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقّهٍ وتنبيه. وأراكَ قد عِبتَه قبل أن تقفَ على حُدودِه، وتتفكّرَ فى فصوله، وتعْتبِرَ آخرَه بأوله، ومَصَادِرَه بموارده، وقد غلّطَك فيه بعضُ ما رأيت فى أثنائه من مزحٍ لم تعرف معناه، ومن بَطالةٍ لم تطّلِعْ على غَورها، ولم تدرِ لم اجتُلِبت، ولا لأَيِّ علّة تُكُلِّفت، وأىّ شىءٍ أُرِيغَ بها، ولأىِّ جِدٍّ احتُمِل ذلك الهزل، ولأىِّ رياضةٍ تُجُشِّمتْ تلك البَطالة؛ ولم تَدْرِ أَنَّ المزاحَ جِدٌّ إذا اجتُلِب ليكون علّةً للجِدِّ، وأَنَّ البَطالة وَقارٌ ورَزانة، إذا تُكُلِّفت لتلك العاقبة. ولمّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه، حتّى يتعلّم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يحتاج إليه إلاّ بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يحتاج إليه. وذلك مثل كتابنا هذا"[1].

ويذكر التوحيدى نصًّا للجاحظ من كتابه المفقود الملح يدافع فيه عن الأدب الفكاهى الذى يكتبه وينشره فى كثير من مؤلفاته، وخصص عنه بعض مؤلفاته بقوله: "إنما أردنا أن يكون ذلك الضحك إجمامًا للقوة، وتنشيطًا على العمل"[2].

---

(1) الحيوان، 1/37- 38.

(2) التوحيدى: البصائر والذخائر. تحقيق: د. وداد القاضى. بيروت، دار صادر، ط1، 1408هـ/ 1988م، 8/59.

وخلال دفاع الجاحظ عن الفكاهة والأدب الفكاهى فى مؤلفاته، نجده يشير لمزاح النبى ﷺ وصحابته الكرام، يقول: "وقد ضحك النبى ﷺ ومزَح وضحك الصالحون ومزحوا، وإذا مَدَحوا قالوا: هو ضَحوك السنّ، وبسّام العشيّات، وهشٌّ إلى الضيف وذو أرْيحيّة واهتزاز، وإذا ذمّوا قالوا: هو عَبوس، وهو كالح، وهو قَطوب، وهو شَتيم المحيّا، وهو مكفهرٌّ أبدًا، وهو كريه، ومقبَّض الوجه، وحامض الوجه، وكأنما وجههُ بالخلّ منضوح"[1].

وكذلك يدافع الجاحظ عن ميله للفكاهة وذكر النوادر فى مؤلفاته بقوله: إن أهل العلم والنظر يفعلون ما يفعله، فيقول على لسان منتقده لمؤلفاته فى مقدمته لكتاب الحيوان: "وقلت: وما بال أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبر، وأرباب النحل، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الظُّرفاء والمُلحاء، وكتب الفرَّاغ والخلعاء، وكتب الملاهى والفكاهات ...."[2].

وضمن مديح الجاحظ للكتاب، وذكر محامده خلال استعراضه مزاياه فى مقدمته لكتاب الحيوان، نراه بقول: إن من مزايا الكتاب أنك تضحك من نوادره[3].

---

(1) البخلاء، ص6- 7.

(2) الحيوان، 25/1.

(3) المصدر السابق، 39/1.

وكأن الجاحظ يرى النوادر فى كتبه من أهم ما فيها ، بل إنها تعمل على إجمام القارىء خلال انشغاله بالقضايا والأفكار والموضوعات التى تعرضها كتبه – على وجه الخصوص – .

ومع دفاع الجاحظ الكثير عن الفكاهة التى تمتلىء بها مؤلفاته – فإنه يرى أن المزاح له موضع لا يجب أن يجوزه أحد وكذلك الجد له موضع لا يجب أن يقصر عنه أحد ، يقول: "وللضحِك موضع وله مقدار، وللمَزْح موضعٌ وله مقدار، متى جازهما أَحد وقصّر عنهما أحد ، صار الفاضل خَطَلا والتقصير نقصًا. فالناس لم يعيبوا الضحك إلاّ بقدر ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفعُ، وبالضحك الشىء الذى له جُعل الضحك، صار المزحُ جِدًّا والضحك وقارًا" (1).

بل إن الجاحظ خلال دفاعه عن الفكاهة والمزاح يرى أن الجد أولى بالإنسان فى أغلب أحواله من المزاح؛ يقول : "ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزح فى الجملة كالجدّ فى الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزح، والحق أن يُنضح عن بعض المزح ويُحتج لجمهور الجدّ؛ وكيف لنا بذم جميع المزح" (2).

---

(1) البخلاء، ص7.

(2) التربيع والتدوير، ص67- 68.

ويفهم من نص للجاحظ أنه يرفع من شأن الجد على المزاح، وذلك فى قوله: "ولا تلتمس الفروعَ إلا بعد إحكام الأصول، ولا تنظر فى الطُّرَف والغرائب، وتؤْثر روايةَ المُلَح والنَّوادر، وكلِّ ما خفَّ على قلوب الفُرَّاغ، وراق أسماعِ الأغمار، إلا بعد إقامة العمود، والبصَرِ بما يَثْلِم من ذلك العمود"[1].

ومن ثمّ نقول: إن هؤلاء المستشرقين ومن شايعهم من المغرضين على الجاحظ لم ينصفوا الجاحظ حين رموه بميله للعبث والمجون والمضاحك، وقولهم: إن كتبه يغلب عليها التسلية. فها هو ذا الجاحظ يرى الجد أولى من المزاح، وأن الإنسان عليه أن يلتزم بالجد فى معظم أموره، ومع ذلك فعليه أن ينبسط ويمزح، ليخفف عن نفسه آلام الحياة، فالابتسامة المشرقة تنير النفس وتدفع بها إلى التفاؤل.

وكثير من الكتاب الذين جاءوا بعد الجاحظ دافعوا عن مزجهم فى كتبهم بين الجد والهزل، ونثر النوادر فيها بحجج قريبة من حجج الجاحظ، متأثرين بفلسفته فى الدفاع عن الفكاهة وذكر النوادر فى كتبه[2].

---

(1) البرصان والعرجان، ص29.

(2) انظر على سبيل المثال دفاع أبى حيان التوحيدى عن ذكره النوادر والملح فى كتبه فى كتابه البصائر والذخائر، 1/55؛ 2/227.

وخلال دفاع الجاحظ عن الفكاهة والضحك يذكر أثرهما على النفس، فهو يرى أن الضحك والفكاهة يعملان على انبساط النفس، ويمكنان المعدة من هضم الطعام فى يسر[1].

وحديث الجاحظ عن أثر الفكاهة على نفس الإنسان فى ميلها للسرور والانبساط يتفق مع كثير من آراء علماء النفس والاجتماع[2].

لا نضحك إلا فى وجود جماعة

وسبق الجاحظ بعض الفلاسفة الذين تحدثوا عن دوافع الضحك – مثل برجسون – فى حديثه عن بعض الأمور المتعلقة بضحك الإنسان وما يدفعه للضحك. ومن ذلك قوله بأن الإنسان لا يضحك إلا حين استشعاره جماعة معه فالضحك فى حاجة لصدى الآخرين.

وهو يعلق على حكايته مع محفوظ النقاش البخيل الذى دعاه لبيته، ثم شعر بتورطه فى دعوته فحاول أن يتراجع دون أن يكشف بخله، ولكن الجاحظ يدرك حيلته فى التراجع؛ ولذا يهجم على الطعام الذى أعده له، ويعلق الجاحظ على كلام هذا

---

(1) البخلاء، ص124.

(2) انظر فى هذا: د. زكريا إبراهيم: لماذا نضحك؟. مقال منشور بمجلة الهلال. القاهرة، العدد الثامن، السنة الرابعة والسبعون، أغسطس، 1966م، ص6.

البخيل بقوله: "فما ضحكت قط كضحكى تلك الليلة. ولقد أكلته جميعًا فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن. ولو كان معى من يفهم طيبَ ما تكلم به لأتى علىَّ الضحك، أو لقضى علىّ ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب" [1].

ويقول برجسون فى كتابه الضحك فى العصر الحديث كلامًا مشابهًا لكلام الجاحظ هنا، يقول: "فنحن لا نتذوق المضحك فى حالة شعورنا بالعزلة، والضحك فى حاجة إلى صدى" [2].

ويقول أيضًا: "فضحكنا هو أبدًا ضحك جماعة. ولعله اتفق لك أن كنت فى قطار أو مطعم فسمعت الناس يتبادلون حكايات لا بد أنها كانت مضحكة لديهم ما دامت أضحكتهم، وكانت تضحكك لو كنت منهم. ولكنك لست منهم، فما تشعر بحاجة إلى الضحك" [3].

---

(1) البخلاء، ص124.

(2) هنرى برجسون: الضحك (البحث فى دلالة الضحك). ترجمة: سامى الدروبى وعبد اللّه عبد الدايم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م، ص15.

(3) المرجع السابق، ص15- 16.

ميل سكان بعض البلاد للفكاهة والضحك

وخلال تأمل الجاحظ طبائع بعض الأمم والجماعات التفت إلى أن بعض البلاد يغلب على أهلها الميل للفكاهة، ولعل هذا بتأثير المناخ والبيئة، يقول الجاحظ فى ذلك: "ويزعم تُجَّار التُّبَّتِ ممن قد دخَل الصِّين والزَّابِج[1]، وقلَّب تلك الجزائر، ونقّب فى البلاد، أنّ كلَّ من أقام بقصبة تُبَّت اعتراه سُرورٌ لا يدرى ما سببُه، ولا يزال مبتسمًا ضاحكًا من غير عجب حتى يخرجَ منها"[2].

مزج الجاحظ كثيرًا من كتبه بالجد والهزل

ومن الظواهر الواضحة فى كثير من مؤلفات الجاحظ التى وصلتنا أنه يمزج فيها بين الجد والهزل، ويرى أن الهزل يكون جمامًا وتنشيطاً بعد ما أرهق قارئه ببعض المعلومات والأفكار والقضايا.

ويخاطب الجاحظ قارئه فى كثير من مؤلفاته التى بها هذه الصفة – فى مزجها بين الجد والهزل – مذكرًا إياه أنه يتبع هذه الطريقة لتنشيطه، وليس ذلك لعجز منه عن المواصلة فى عرض

---

(1) الزابج، بفتح الباء وكسرها: جزيرة فى أقصى بلاد الهند، وراء بحر هركند فى حدود الصين.

(2) الحيوان، 230/7.

القضية – أو القضايا التى يعرضها دون توقف بذكر هذا الهزل فى وسطها – ومن ذلك يقول فى كتابه الحيوان: "وعلى أنِّى قد عزمتُ – واللّهُ الموفِّق – أنِّى أوشِّح هذا الكتابَ وأفصِّلُ أبوابَه، بنوادِرَ من ضُروبِ الشِّعر، وضروبِ الأحاديث؛ ليخرج قارىءُ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإِنِّى رأيتُ الأسماعَ تملُّ الأصواتَ المطْرِبَة والأغانى الحسنة والأَوتارَ الفَصيحة، إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلاّ فى طريق الراحة، التى إذا طالت أورثت الغفلة.

وإذا كانت الأَوائلُ قد سارتْ فى صغارِ الكتب هذه السِّيرةَ، كان هذا التَّدبيرُ لِمَا طالَ وكثُر أصلَحَ، وما غايتنا مِن ذلك كلِّه إلاّ أن تَستَفيدُوا خيرًا.

وقال أبو الدَّرداء: إنِّى لأُجمُّ نفسى ببَعْض الباطل، كراهةَ أنْ أحِمل عليها من الحق ما يملُّها!"[1].

ويقول أيضًا فى الكتاب نفسه: "وإنما أكتب لك من كلّ بابٍ طَرَفًا، لأنّ إخراجَك مِن بابٍ إلى باب أبقى لنشاطك، ولو كتبته بكمالِه لكان أكملَ وأنبل، ولكن أخافُ التَّطْويل، وأنتَ جديرٌ أن تعرف بالجملةِ التّفصيلَ، والآخرَ بالأوّل"[2].

(1) الحيوان، 3/7.

(2) المصدر السابق، 7/162.

ويؤكد على منهجه ذاك فى كتابه البيان والتبيين بقوله: على الكتاب "أن يداوِيَ مؤلِّفُه نشاطَ القارىء له، ويسوقَه إلى حظِّه بالاحتيال له. فمِن ذلك أن يُخرجه من شىء إلى شىء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفنّ، ومن جُمهور ذلك العِلم"[1].

وكذلك يذكر الجاحظ فى كتابه فى الشارب والمشروب منهجه ذلك فى مزجه بين الجد والهزل بقوله: "فخلطت لك جِدًّا بهزل، وقرنْتُ لك حُجّةً بَمُلْحة، ليخِفَّ مَؤُونة الكتاب على القارىء، وليزيد ذلك فى نشاط المستمع، فجعلت الهزلَ بَعْدَ الجِدِّ جَمَامًا، والمُلْحة بعد الحُجَّة مُستراحًا"[2].

وأيضًا يكرر ذكر ذلك المنهج خلال كتابه فى النساء[3]، وكتابه فى طبقات المغنين[4].

وقد اتبع كثير من المؤلفين الذين جاءوا بعد الجاحظ طريقته فى مزج مؤلفاتهم – أو بعضها – بالجد والهزل، وذكروا حجج الجاحظ نفسها فى صنيعهم ذاك.

---

(1) البيان والتبيين، 366/3.

(2) رسائل الجاحظ. من كتابه فى الشارب والمشروب، 281/4.

(3) المصدر السابق من كتابه فى النساء، 153/3.

(4) المصدر السابق. من كتابه فى طبقات المغنين، 133/3.

فيقول المبرد فى كتابه الكامل: "نذكر فى هذا الباب من كل شىء شيئًا، ليكون فيه استراحة للقارىء، وانتقال ينفى الملل، لحسن موقع الاستطراف، ونخلط ما فيه من الجد بشىء من الهزل، ليستريح إليه القلب، وتسكن إليه النفس"(1).

ويسلك ابن قتيبة منهج الجاحظ فى المزج بين الجد والهزل فى كتابه عيون الأخبار، ويدافع عن هذا المنهج بقوله: "ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة، وكلمة مُعجبة وأخرى مضحكة لئلا يخرج من الكتاب مذهب سلكه السالكون وعَرُوضًا أخذ فيها القائلون، ولأروح بذلك عن القارىء من كد الجد وإتعاب الحق، فإن الأذن مجّاجة والنفس حمضة"(2).

وكذلك نرى التوحيدى – التلميذ غير المباشر للجاحظ، ومؤلف كتاب تقريظ الجاحظ – يستخدم المنهج الجاحظى فى المزج بين الجد والهزل فى مؤلفاته، ويدافع عن هذه الطريقة بحجج قريبة مما ذكره الجاحظ فى ذلك(3).

---

(1) المبرد: الكامل. عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربى، د.ت، 285/2.

(2) ابن قتيبة: عيون الأخبار. شرحه وضبطه وعلق عليه وَقدَّم له ورتب فهارسه: د. يوسف على طويل. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، 44/1.

(3) البصائر والذخائر، 55/1؛ 227/2.

وبهذا نرى أن كثيرًا من الكتاب الذين جاءوا بعد الجاحظ قد تأثروا بطريقته تلك التى اتبعها فى مؤلفاته – أو فى أكثرها – بمزجه بين الجد والهزل فيها.

تعريف النـادرة

لم يعـرف الجـاحظ النـادرة فيمـا وصـلنا مـن مؤلفاتـه[1]، ولكن يمكن تعريفها بأنها "أقصوصة مرحة، تتكون من وحدة سردية مستقلة بذاتها"[2]، وهى تتميز بالتركيز الشديد وتميل إلى الإيجاز غير المخل بالبناء[3]، وهـى خالية من التعقيد، ولها محور رئيس واحد، وقلما تتجه إلى الخارق، وتعد هذه النوادر من المراحل الأولى للإبداع القصصى[4].

وتدور غالبًا حول الحياة اليومية، وهى "إنسانية الشخوص والأحداث فى معظم الأحيان. وتغلب على هذه الحكايات

(1) وإن كان الجاحظ قد ذكر النادرة فى أحد مؤلفاته بمعنى الشىء النادر القليل الحدوث، يقول: "ولبنى هاشم واحدة مبرَّزة وثانية نادرة يتقدمون بها على جميع الناس ....". انظر: رسائل الجاحظ. من كتابه فى الأوطان والبلدان، 122/4.

(2) د. محمد رجب النجار: النثر العربى القديم من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه – مذاهبه – أعلامه. الكويت، ط1، 1996م، ص269.

(3) د. عزة الغنام: الفن القصصى العربى القديم من القرن الرابع إلى القرن السابع الهجرى. القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، 1991م، ص50.

(4) سامى عبد الوهاب بطة: الحكاية الشعبية دراسة فى الأصول والقوانين الشكلية. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، يناير 2004م، ص77.

المفارقات التى يستحدثها الغباء أو البلادة أو الخدعة، وقد يكون موضوعها ماجنًا، وهى خالية من التعقيد"[1].

أنــواع النــادرة

ومن الأمور المهمة التى تحدث عنها الجاحظ فيما يخص تنظيره للنادرة حديثه عن أنواعها، ويتحدث عن هذه الأنواع بمصطلحات نفهم منها مراده منها – فى الغالب – يقول: "كما أنّ النادرةَ الباردة جِدًّا قد تكون أطيَبَ من النادرة الحارَّة جدًّا. وإنّما الكَرْبُ الذى يَخْتِم على القلوب، ويأخذُ بالأنفاس، النادرةُ الفاترة التى لا هى حارّةٌ ولا باردة، وكذلك الشِّعر الوسَط، والغِناء الوسط؛ وإنّما الشَأن فى الحارّ جدًّا والباردِ جدًا"[2].

وفى مقدمة كتابه الحيوان، وخلال حديثه عن كتابه المفقود "الملح والطرف" يعيد كلامه عن أنواع النادرة التى تحدث عنها من قبل، بقوله: "وعبتنى بكتاب الملح والطرف، وما حرَّ من النوادر وبرُد، وما عاد بارده حارًّا لفَرْط برده حتى أمتع بأكثر من إمتاع الحار"[3].

---

(1) د. عبد الحميد يونس: الحكاية الشعبية. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مايو 1997م، ص77، وانظر أيضًا: يوسف الشارونى: الحكاية فى التراث العربى. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2008م، ص229.

(2) البيان والتبيين، 145/1.

(3) الحيوان، 1/3- 4.

وأظن أن الجاحظ يقصد بالنادرة الحارة، تلك النادرة التى تضحك من يسمعها أو يقرؤها بشدَّة، فهى شديدة الإضحاك. أما النادرة الباردة فهى فى ظاهرها قد تفتقد لعناصر الإضحاك، ولكنها لغرابتها قد تضحك جدًّا.

والنادرة الفاترة – لعل الجاحظ يقصد بها – تلك التى خلت من أى عنصر من عناصر الإضحاك، أو لعله يقصد بها النادرة غير المثيرة فى موضوعها، وغير المفجرة للضحك لمن يسمعها أو يقرؤها، أو هى التى لا تفاجئ القارئ أو السامع بما يثيره للضحك.

لغـــة النـــادرة

وكان من أهم ما تحدث عنه الجاحظ بخصوص النادرة حديثه عن اللغة التى تصاغ بها. وهو يرى أن تروى النادرة بالألفاظ التى قيلت بها ابتداء من قائليها.

ويرى أن تغيير ألفاظها يؤدى إلى ضياع عنصر – أو عناصر – الفكاهة منها؛ لأنها أضحكت بهذه الألفاظ، فلا يجب تغييرها بأى شكل من الأشكال. يقول فى ذلك: "ومتى سمعتَ – حفِظك اللّه – بنادرةٍ من كلام الأعراب، فإيّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارِجِ ألفاظها؛ فإنَّك إنْ غيَّرتَها بأن تلحَنَ فى إعرابها وأخرجْتَها مخارجَ كلام المولّدين والبلديِّين، خرجْتَ من تلك

الحكاية وعليك فضلٌ كبير. وكذلك إذا سمِعتَ بنادرةٍ من نوادر العوامّ، ومُلْحه من مُلَح الحُشوَة والطَّغَام، فإيَّاك وأن تستعمِلَ فيها الإعراب، أو تتخيَّرَ لها لفظًا حسنًا، أو تجعل لها مِن فيك مخرجا سَرِيًّا؛ فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها، ويُخرجها من صورتها، ومِن الذى أُرِيدَت له، ويُذهب استطابَتهم إياها واستملاحَهم لها"(1).

ويقول أيضًا: "أنا أقول: إن الإعراب يفسد نوادر المولّدين، كما أن اللحن يُفْسِد كلام الأعراب؛ لأنَّ سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرَج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دَخَلْت على هذا الأمر – الذى إنما أضحك بسُخفِه وبعض كلام العجميّة التى فيه – حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوَّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظْمه، وتَبدَّلت صورته"(2).

وفى موضع آخر يذكر نظريته هذه فى رواية النادرة بالألفاظ التى قيلت بها، يقول: "وإذا كان مَوْضِعُ الحديثِ على أنّهُ مُضْحِكٌ ومُلْهٍ، وداخِلٌ فى باب المزَاح والطِّيب(3)، فاستعْمَلتَ فيه الإعراب، انْقَلَبَ عن جِهَتِه. وإنْ كان فى لفظه سُخْف وأبْدَلْتَ السَّخافة

(1) البيان والتبيين، 1/145- 146.

(2) الحيوان، 1/282.

(3) الطيب بمعنى الهزل والفكاهة.

بالَجزالة، صارَ الحديثُ الذى وضِع على أنْ يسُرَّ النُّفوسَ يُكـْرِبها، ويَأْخُذُ بأكظامها"[1].

وقد طبق الجاحظ نظريته تلك فى رواية نوادر الأعراب والفصحاء بألفاظها الفصيحة، وروى نوادر العوام بالألفاظ التى تعدَّ عامية فى عصره، وهو يشير لاستخدامه هذه الطريقة فى كتابه البخلاء خلال عرضه نوادره، بقوله: "وإن وَجَدتم فى هذا الكتاب لحنًا، أو كلامًا غيرَ مُعْرب، ولفظًا معدولاً عن جهته فاعلموا أنّا ترَكنا ذلك لأنّ الإعرابَ يبغِّض هذا الباب، ويخرجُهُ من حدّه إلا أن أحكىَ من كلام متعاقلِى البخلاء، وأشحّاء العلماء، كسهل بن هارون، وأشباهه"[2].

كذلك لا يرى الجاحظ حرجًا فى استخدام ألفاظ المناكح، وبخاصة خلال النوادر، ويرى أن هذه الألفاظ لو حذفت من مكانها لفقدت النادرة شطر حلاوتها ولم تضحك[3].

ويقول الجاحظ ذاكرًا علله فى ذكر هذه الألفاظ صراحة خاصة فى النوادر: "وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظِ مواضعُ

(1) الأكظام: جمع كظم، بالتحريك، وهو مخرج النفس، وانظر: الحيوان، 39/3.

(2) البخلاء، ص40.

(3) انظر فى هذا: الحيوان، 40/3، ورسائل الجاحظ. كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان، 93/2.

استعملها أهلُ هذه اللُّغة وكان الرأىُ ألا يُلفَظَ بها ، لم يَكُنْ لأوَّل كونها معنًى إلا على وجه الخطأ ، ولكان فى الحزْم والصَّوْنِ لهذه اللغة أن ترْفَعَ هذه الأسماء منها.

وقد أصاب كلَّ الصَّوابِ الذى قال: "لِكلِّ مَقَامٍ مَقال"[1].

ولكون عصر الجاحظ عصرًا يتحكم فيه الرجال، ولا وجود مؤثر للمرأة فيه؛ فلهذا شاع استخدام هذه النوادر التى تذكر فيها ألفاظ المناكح صراحة، ولكننا فى عصرنا هذا الذى تشارك فيه المرأة الرجل كل أعباء الحياة لا نرى مسوغًا لاستخدام هذه الألفاظ التى تخدش الحياء.

أما عن حديثه عن لغة النادرة فما أحوجنا للاسترشاد بكلامه هذا فى لغة المسرح، فتكون لغة الشخصيات فى المسرحية قريبة من لغتها فى الحياة، ولا بأس فى المسرحيات الكوميدية من أن تتحدث الشخصيات بألفاظ عامية غير مبتذلة، أو بألفاظ فصيحة مشبعة بروح العامية.

وعلى الرغم من تمكن الجاحظ من اللغة، وإدراكه كل خصائصها[2]، ومهارته فى استخدامها خلال كتبه ونوادره –

---

(1) الحيوان، 43/3.

(2) ومما يدخل ضمن إدرك الجاحظ لخصائص اللغة العربية، وسبره لأغوارها قوله: "فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنِية، وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذ دَلالات أخر، فمن لم يعرفْها جَهِل تأْويلَ الكتابِ والسُّنَّة، والشاهدِ والمثلِ؛ فإذا نظَر فى الكلام وفى ضروب من=

على وجه الخصوص – فهو يدرك – مع ذلك – أن اللغة قد تعجز عن وصف بعض المشاهد والصور المضحكة؛ ولهذا يحيل القارىء على استخدام خياله؛ لأن اللغة تعوزه فى وصف الصورة كما رآها بشكلها الذى أثاره للفكاهة، يقول الجاحظ: "ولم أرَ مثل أبى جعفر الطَّرَسوسى:

زار قومًا فأكرموه وطَيّبوه، وجَعلوا فى شاربه وسَبَلته غالية. فحكته شفتُه العُليا، فأدخلَ إصبعه فحكّها من باطنِ الشفة، مخافةَ أن تأخذَ إصبَعُه من الغالية شيئًا إذا حكّها مِن فَوق.

وهذا وشِبهُهُ إنما يطيبُ جدًّا إذا رأيتَ الحكايةَ بعينِك. لأنّ الكتابَ لا يصوّر لك كلَّ شىء، ولا يأتى لكَ على كُنهه، وعلى

=العلم، وليس هو من أَهل هذا الشأن، هلك وأَهلك"، انظر: الحيوان، 1/153-154، وكذلك يقول: "ولكلِّ قَوْمٍ ألفاظٌ حظيت عِنْدَهم. وكذلك كلُّ بليغٍ فى الأرض وصاحِب كلامٍ منثور، وكلُّ شاعِرٍ فى الأرض وصاحِبِ كلامٍ موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهجَ وألف ألفاظًا بأعيانها؛ ليديرها فى كلامه وإن كان واسعَ العلمِ غزيرَ المعانى، كثيرَ اللَّفظ". انظر: الحيوان، 3/366، ويقول: "وكما لا ينبغى أن يكون اللفظُ عاميًّا، وساقطًا سُوقيًّا، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبًا وحشيًّا؛ إلا أنْ يكون المتكلّم بدويًّا أعرابيًّا؛ فإن الوحشىَّ من الكلام يفهمه الوحشىُّ من الناس، كما يفهَمُ السُّوقىّ رِطَانَةَ السُّوقىّ. وكلامُ النّاس فى طبقاتٍ كما أنّ الناسَ أنفسهم فى طبقات. فمن الكلام الجَزلُ والسَّخيف، والمليحُ والحسن، والقبيح والسَّمجُ، والخفيفُ والثقيل؛ وكلُّه عربى، وبكُلٍّ قد تكلّموا، وبكلٍّ قد تَمادَحوا وتعايبوا". انظر: البيان والتبيين، 1/144، وانظر أيضًا ملاحظات مهمة يقولها حول اللغة فى الحيوان، 3/368- 369.

حُدوده وحَقَائقه"[1].

وأيضًا من إشارات الجاحظ المهمة حول لغة النادرة – على وجه الخصوص – قوله بأن "الكلام قد يكون فى لفظ الجد ومعناه الهزل، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه الجد"[2].

وقد اتبع منهج الجاحظ ذاك فى عرض النادرة باللغة والألفاظ التى قيلت بها، من جاء بعده من الكتاب، مثل ابن قتيبة والمبرد وابن عبد ربه والتوحيدى.

فها هو ذا ابن قتيبة يدافع عن هذه الطريقة فى رواية النادرة بالألفاظ التى قيلت بها فى قوله: "وكذلك اللحن إن مرَّ بك فى حديث من النوادر فلا يذهَبنَّ عليك أنّا تعمدناه وأردْنا منك أن تتعمَّده لأن الإعراب ربما سَلَبَ بعض الحديث حسنه وشاطر النادرة حلاوتها، وسأمثّل لك مثالاً: قيل لمزبِّد المدينى – وقد أكل طعامًا كظَّه[3] قِى؛ فقال: ما أقى، أقى نَقًا ولحم جَدْى! مرْتى طالق لو وجدت هذا قيًا لأكلته. ألا ترى أن هذه الألفاظ لو وفّيت بالإعراب والهمز حقوقها لذهبتْ طلاوتها ولاستبشعها سامعها وكان أحسن

---

(1) البخلاء، ص58.

(2) أبو حيان التوحيدى: أخلاق الوزيرين "مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد". حققه وعلق حواشيه: محمد بن تاويت الطنجى. مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق، 1965م، ص447.

(3) ملأه حتى لا يطيق النفس.

أحوالها أن يكافىء لطْفُ معناها ثقلَ ألفاظها"[1].

توليـــد النـــادرة

توليد النادرة يعنى تأليفها ونسبتها لأشخاص آخرين يقومون برواياتها، أو تأليفها وذكر أشخاص – حقيقيين أو وهميين – متواجدين فيها ويحركون الحدث الرئيس فيها.

ويبـدو أن الجـاحظ قـد عـرف عنـه قـديمًا توليـده بعـض الأخبـار[2]، وهـو نفسـه يقـول: إنـه كـان فـى بداية عمله بالتـأليف يجد صعوبة فى نشر مؤلفاته بين الناس إن نسبها لنفسـه؛ ولهذا كـان ينسـب بعضـها لـبعض المـؤلفين السـابقين المشـهورين كـابن المقفع والعتابى[3].

وكذلك نلاحظ أن الجاحظ لم ينسب كتاب القيان لنفسه، بل نسبه لرواة مجهولين[4] حتى لا يؤاخذ بما فيه من آراء جريئة بمقياس عصره، فيما يخص علاقة الرجل بالمرأة، ورأيه فى الغناء والموسيقى، وتعرُّضه لبيوت القيان وما شابه ذلك.

---

(1) عيون الأخبار، 46/1.

(2) تاريخ مدينة دمشق، 441/45، وسير أعلام النبلاء، 529/11.

(3) رسائل الجاحظ. كتاب فصل ما بين العداوة والحسد، 351/1. وانظر أيضًا: المسعودى التنبيه والإشراف. طبع فى مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل، 1893م، ص76- 77.

(4) انظر: رسائل الجاحظ. كتاب القيان، 143/2، 181.

وفى مقدمته لكتاب البخلاء، وخلال عرضه بعض الأمور التى تتعلق بنظريته فى الفكاهة والنادرة – على وجه الخصوص – إذا به يتحدث عن توليد النادرة بشكل واضح وصريح على أنه فن معروف فى عصره. يقول: "ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبى الحارث جمّين والهيثم بن مطهر وبمزبّد وابن أحمر، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون، ولو ولّد نادرة حارة فى نفسها مليحة فى معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النوّاء وإلى بعض البغضاء، لعادت باردة ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد. وكما أنّك لو ولّدت كلامًا فى الزهد وموعظة الناس، ثم قلتَ: هذا من كلام بكر بن عبد اللّه المُزَنىّ وعامر بن عبد قيس العنبرى ومؤرّق العجلىّ ويزيد الرقاشى، لتضاعف حسنه ولأحدث له ذلك النسَب نضارة ورفعة لم تكن له، ولو قلتَ: قالها أبو كعبٍ الصوفىّ أو عبدُ المؤمن أو أبو نواس الشاعر أو حسين الخليع، لما كان لها إلا ما لها فى نفسها، وبالحَرَى أن تغلظ فى مقدارها فتبخس من حقها"[1].

ولأن الجاحظ كان خبيرًا فى توليد النوادر ونسبتها لأشخاص حقيقيين أو وهميين؛ فلهذا لم يكن يصعب عليه اكتشاف النوادر التى يرى أنها مولّدة كما نرى فى عرضه لهذه النادرة وتعليقه عليها.

(1) البخلاء، ص7- 8.

"وما علمت فى العرب قبيلة لقيت من جميع ما هُجِيت به ما لقيت نميرٌ من بيت جرير. ويزعمون أنّ امرأةً مرّت بمجلس من مجالس بنى نُمير، فتأمَّلها ناسٌ منهم فقالت: يا بنى نمير، لا قول اللّه سمعتم، ولا قول الشاعر أطعتم! قال اللّه تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾، وقال الشاعر:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُميرٍ فلا كَعْبًا بَلغتَ ولا كلابا

وأخلِقْ بهذا الحديث أن يكون مولَّدًا، ولقد أحسن من وَلَّده"[1].

وخلال حديثه مع صديق ظريف له يدعى المكىّ، يذكر المكىّ له أنه ولَّد نادرة ذاعت فى الناس، ولها أبعاد سياسية واضحة، وها هو ذا ذلك الحديث وما فيه من تلك النادرة.

"وقلت له مَرَّةً: علمتُ أَنّ الشارى حدّثنى أنَّ المخلوعَ[2] بعث إِلى المأمونِ بجرابٍ فيه سمسِمٍ؛ كأَنّه يخبِرُ أَنَّ عندَه من الجند بعددِ ذلك الحبّ وأنَّ المأمونَ بعث إِليه بديكٍ أعورَ، يريد أنَّ طاهر بن الحسين يقتُلُ هؤلاءِ كلَّهم، كما يلقط الدِّيك الحبَّ! قال: فإِنَّ هذا الحديث أنا ولَّدته. ولكن انظرْ كيفَ سار فى الآفاق؟!

(1) البيان والتبيين، 36/4.

(2) المقصود بالمخلوع الخليفة الأمين.

وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة"[1].

وبالطبع توليد الجاحظ النوادر فى كتبه ومؤلفاته ليس عيبًا يؤاخذ عليه، فقد كانت طريقة التأليف فى عصره ما زالت فى بدايتها، وكانت حميلة على الرواية، وذكر الأسانيد؛ فلهذا دخل الجاحظ مجال التأليف من خلال تلك الطريقة بذكر بعض الأسانيد والأشخاص – الحقيقيين أو الوهميين – ولكنهم فى كل الأحوال لا علاقة لهم بهذه النوادر – أو ببعضها – التى يذكرها الجاحظ؛ لأنها من تأليفه.

ويدافع كثير من الباحثين والنقاد المعاصرين عن الجاحظ فى تأليفه النوادر ونسبته إياها لغيره من الرواة أو الأشخاص. فعبد العزيز البشرى يقول: "وهذه نوادر البخلاء فى كتاب الجاحظ ما أحسب كثيرًا منها إلا منشأ مصنوعًا"[2].

ويقول أيضًا الدكتور أحمد عبد الغفار عبيد:"ولعله لا يخفى على القارىء المتمرس بأسلوب الجاحظ، الملم بطريقته فى التأليف أن جلّ ما ينسبه لبخلائه أو يحكيه عنهم من أقوال واحتجاجات هو فى الحقيقة للجاحظ نفسه، ولسنا نقطع بأن الجاحظ قد نسج هذه الروايات من خياله، وإنما الذى نرجحه هو أنه وإن يكن مضمون بعض هذه القصص والطرائف ثابتًا وصحيح النسبة

---

(1) الحيوان، 327/3.

(2) عبد العزيز البشرى: المختار. دار المعارف بمصر، ط4، 145/2.

لقائليه، فإن للجاحظ الدور الأساسى فى صياغتها وترتيبها وإدارتها على النحو الذى يحقق هدفه الفنى فى إمتاع قرائه بهذا الأثر الأبى الطريف"[1].

وكذلك دافع الدكتور طه الحاجرى عن طريقة الجاحظ فى نسبته بعض النوادر التى يرويها من تأليفه لغيره، بأن هذا باب من الفن عُرف فى عصر الجاحظ، ومارسه الجاحظ فى بعض كتبه التى ذكر فيها نوادره، وحكاياته الطريفة[2].

تعليق الجاحظ على بعض النوادر

علق الجاحظ على بعض النوادر التى ذكرها فى كتبه، وبخاصة تلك النوادر التى رواها عن غيره، وأحيانًا يكون تعليقه عليها بإظهار أن عنصر الصنعة واضح فيها؛ ولذا فهى أقرب لأن تكون مولَّدة أو هى مولَّدة بالفعل كما نرى فى عرضه لهذه النادرة وتعليقه عليها: "وما علمت فى العرب قبيلة لقيت من جميع ما هُجِيت به ما لقيت نميرٌ من بيت جرير. ويزعمون أنّ امرأةً مرّت بمجلس من مجالس بنى نُمير، فتأمَّلها ناسٌ منهم فقالت: يا بنى نمير، لا قول اللّه سمعتم، ولا قول الشاعر أطعتم! قال اللّه تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾، وقال الشاعر:

(1) أدب الفكاهة عند الجاحظ، ص54 - 55.

(2) مقدمة كتاب البخلاء للدكتور طه الحاجرى، ص41 - 42.

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُميرٍ فلا كَعْبًا بَلغتَ ولا كلابا

وأخلِقْ بهذا الحديث أن يكون مولَّدًا، ولقد أحسن من وَلَّده"[1].

وكذلك يشير الجاحظ إلى وجود مبالغات فى حوادث بعض النوادر، مما يجعله لا يميل لقبولها، ويرى أنها مما لا يمكن أن يحدث بين الناس؛ ولهذا فهى أقرب فى ظنه لأن تكون مولَّدة، كما نرى فى عرضه لهذه النادرة وتعليقه عليها.

"وحديث سَمِعناه على وجه الدهر. زعَموا أنّ رجلاً قد بلَغ فى البخل غايتَه، وصار إمامًا، وأنه كان إذا صار فى يَدِه الدرهمُ، خاطَبه وناجاه وفدّاه واستبطأه. وكان ممّا يقولُ له: "كم من أرض قد قَطعتَ، وكم من كِيس قد فارقتَ، وكم من خامِل رفعتَ، ومن رفيع قد أخملت. لك عندى أن لا تعرَى ولا تَضْحى" ثم يُلقيه فى كِيسه ويقول له: "اسكُن على اسمِ اللّه فى مَكان لا تُهان ولا تَذِلّ ولا تُزعَج منه". وإنّه لم يُدخِل فيه دِرهمًا قطّ فأخرجَه.

وأن أهلَه ألحّوا عَليه فى شَهْوة، وأكثروا عليه فى إنفاق دِرهم، فدافَعَهم ما أمكنَ ذلك. ثمّ حمل درهمًا فقط. فبيناهُ ذاهبٌ إذ رأى حواءً قد أرسلَ على نفسِه أفعى لدِرهم يأخذه، فقال فى

---

(1) البيان والتبيين، 36/4.

نفسِه: أتلفُ شيئًا تُبذَل فيه النفسُ، بأكلة أو شربة؟ واللّه ما هذا إلا مَوعظةٌ لى من اللّه. فرَجع إلى أهله، ورد الدرهم إلى كيسه. فكان أهلُه منه فى بَلاء، وكانوا يتمنَّون مَوته والخلاصَ منه بالموت، والحياة بدونه.

فلمّا مات وظنّوا أنهم قد استراحوا منه، قَدِم ابنُه، فاستَوْلى على مالهِ ودارِه، ثم قال: "ما كانَ أُدم أبى؟ فإن أكثرَ الفَساد إنما يكونُ فى الإدام" قالوا: "كان يتأدَّم بجُبنة عنده"، قال: "أرونيها". فإذا فيها حزٌّ كالجَدْول من أثر مَسْح اللقمة قال: "ما هذه الحفرة؟" قالوا: "كان لا يقطَع الجبن، وإنما كان يمسَحُ على ظهره، فيحفُر كما ترى" قال: "فهذا أهلكنى، وبهذا أقعدَنى هذا المقعَد. لو علمتُ ذلك ما صلّيتُ عليه". قالوا: "فأنتَ كيف تريد أن تصنعَ؟" قال: "أضعُها من بَعيد، فأشيرُ إليها باللقمة".

ولا يعجِبُنى هذا الحرفُ الأخير، لأن الإفراط لا غايةَ له. وإنما نحكى ما كانَ فى الناس، وما يجوزُ أن يكون فيهم مثلُه، أو حجّة أو طريفة. فأمّا مثلُ هذا الحرف فليس مما نذكُره. وأمّا سائر حَديث هذا الرجُل فإنه من هذه البابة" (1).

والجاحظ بتعليقه على النادرة السابقة يؤكد ما ذكره بعض النقاد المحدثين – وسبق ذكره – أن النادرة إنسانية الشخوص،

(1) البخلاء، ص131- 132.

وتتحدث عن الأحداث التى تحدث للناس، أو ما يجوز أن يحدث لهم.

وأحيانًا نجد الجاحظ يعلق على النادرة من خلال تفسيره لبعض الأشياء التى قد تكون غامضة على المتلقى فيها، كما نرى فى عرضه لهاتين النادرتين وتعليقه عليهما.

"قال: وقدَّموا إلى سُليمان بن عبد المَلِك جَدْيًا سمينًا، فقال لأبى السِّربال – وكان من مَجانين الأعراب –: "كُلْ منْ شحْم كُلْيَته فإنه يَزيد فى الدِّماغ"، قال: "لو كان الأكل من كُلَى الجدى يزيد فى الدماغ، كان رأس الأمير أعظم من رأس البغل"! وإنما قال "الأمير"، لأن سليمان كان يومئذٍ ولىَّ عهْد"[1].

* * *

"وسأل بعضُ أصحابنا أبا لُقمان الممرور عن الجزء الذى لا يتجزَّأ: ما هو؟ قال: الجزء الذى لا يتجزأ هو علىٌّ بن أبى طالب عليه السلام. فقال له أبو العيناء محمد: أفليس فى الأرض جزءٌ لا يتجزأ غيرُه؟ قال: بلى حَمزةُ جزءٌ لا يتجزَّأ، وجَعْفَرٌ جزءٌ لا يتجزأ! قال: فما تقول فى العباس؟ قال: جزء لا يتجزأ. قال: فما

(1) الجاحظ: القول فى البغال. حقق الكتاب وعلق عليه ووضع الفهارس: د. شارل بللا. القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط1، 1375هـ/ 1955م، ص31.

تقول فى أبى بكر وعمر؟ قال: أبو بكر يتجزأ، وعمر يتجزأ. قال: فما تقول فى عثمان؟ قال: يتجزَّأ مَرَّتين، والزُّبير يتجزَّأ مرَّتين. قال: فأىَّ شىءٍ تقولُ فى معاوية؟ قال: لا يتجزأ ولا لا يتجزأ.

فقد فكرنا فى تأويل أبى لقمان حين جعل الإمام جزْءًا لا يتجزأ إلى أىِّ شىءٍ ذهب، فلم نقع عليه إلاّ أن يكون كان أبو لقمان إذا سمعَ المتكلِّمين يذكرون الجُزْءَ الذى لا يتجزَّأ، هاله ذلك وكبُر فى صدره، وتوهَّمَ أنَّه البابُ الأكبرُ مِن عِلم الفلسفة، وأن الشىءَ إذا عظُم خَطَرُه سموه بالجزء الذى لا يتجزأ"(1).

وأحيانًا يعلق الجاحظ على بعض النوادر التى يذكرها فى مؤلفاته بتفسيرها وشرحها؛ لأنه يظن أن مضمونها قد يغمض على قارئه، كما نرى فى ذكره لهذه النادرة وتعليقه عليها.

"وقد رَوَى أصحابُنا أنّ رجلاً من البلديِّين قال لأعرابى: "كيف أهْلِكْ" قالها بكسر اللام. قال الأعرابىُّ: صَلْبًا. لأنّه أجابه على فَهمه، ولم يعلم أنه أراد المسألةَ عن أهله وعيالِه"(2).

وقد يأتى تعليق الجاحظ على بعض النوادر من أجل السخرية من الشخص الذى تدور النادرة عنه، كما نرى هذا فى عرضه لهذه النادرة وتعليقه على كلام الشخص الذى تدور النادرة عنه.

---

(1) الحيوان، 3/37- 38.

(2) البيان والتبيين، 1/163.

"قال أبو علقمة: كان اسم [الذئب] الذى أكل يوسفَ رجحون. فقيل له: فإنّ يوسف لم يأكلْه الذِّئب، وإنما كذبوا على الذئب؛ ولذلك قال اللّه ﷻ: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قال: فهذا اسمٌ للذئب الذى لم يأكلْ يوسف.

فينبغى أن يكونَ ذلك الاسمُ لجميع الذِّئاب، لأنّ الذئابَ كلها لم تأكله"[1].

وأحيانًا يكون تعليق الجاحظ على بعض النوادر أخلاقيًّا، بحيث يذكر رأيه فى تصرف غريب قام به شخص، ويوضح ما فى تصرفه من سوء خلق وبعد عن منهج الدين، ونرى هذا فى عرضه لهذه النادرة وتعليقه الأخلاقى على تصرف الشخص الذى بها.

"قال: وسمع رجلٌ من المراوزة الحسن[2] وهو يحثّ الناس على المعروف، ويأمرُ بالصدقة، ويقول: ما نقصَ مال قط من زكاة. ويعدهم سرعةَ الخلَف. فتصدَّق بمالِه كلِّه فافتقر، فانتظرَ سنة وسنة، فلمَّا لم يرَ شيئًا بكر على الحسن، فقال: حسنٌ ما صنعتَ بى؟ ضمنتَ لى الخلَفَ، فأنفقت على عِدتك، وأنا اليومَ مذ كذا وكذا سنةً أنتظرُ ما وعدتَ، لا أرى منه قليلاً ولا كثيرًا.

(1) الحيوان، 6/477.

(2) هو الحسن البصرى.

هذا يحلُّ لك؟ اللصُّ كان يصنع بى أكثرَ من هذا؟

والخلفُ يكون معجَّلا ومؤجَّلا. ومن تصدَّق وتشرّط الشروط استحقَّ الحِرمان. ولو كان هذا على ما توهَّمه المَرْوَزىُّ لكانت المحنة فيه ساقطة، ولترك الناسُ التجارة، ولما بقىَ فقيرٌ، ولذهبت العبادة"[1].

ومن أهم تعليقات الجاحظ على النوادر التى يذكرها فى مؤلفاته تعليقاته على النوادر التى يولّدها بعض أصحاب المذاهب الغريبة فى الإسلام، كتوليد بعض الشيعة نوادر تغض من شأن السيدة عائشة وبعض الصحابة الأجلاء رضى اللّٰه عنهم أجمعين.

وهنا نرى الجاحظ ينبرى للدفاع عن السيدة عائشة وعن أى صحابى جليل يساء إليه فى نوادر مولّده من قبل الشيعة على وجه الخصوص، ويوضح أن هذه النوادر مولَّدة، لا أصل لها من واقع، وأن حقيقة الأمر عن هؤلاء الصحابة الأجلاء مختلف تمامًا عما تذكره هذه النوادر المولدة والتى تحاول أن تزيف الحقائق.

ومن ذلك ما عرضه الجاحظ من نادرة فيها غمز بالسيدة عائشة (أم المؤمنين)، ونرى الجاحظ يعرض النادرة ثم بعد ذلك يظهر فسادها، ويهاجم من ولَّدها، ويظهر ما فيها من ظواهر تدل على توليدها وتزييفها.

---

(1) البخلاء، ص27.

وها هى ذى تلك النادرة.

"وقالوا: وقع بين حَيَّيْن من قُريش مُنازَعة، فخرجت عائشة أم المؤمنين رضى اللّه عنها على بغلة، فلقيها ابن أبى عَتيق، فقال: "إلى أين – جُعِلْتُ فِداك"؟ قالت: "أُصلِح بين هذين الحيَّين". قال: "واللّهِ ما غَسَلنا رُؤوسَنا من يوم الجَمَل، فكيف إن قيل: "يوم البغل"! فضحكتْ وانصرفت"[1].

والآن نعرض بعض تعليقات الجاحظ على هذه النادرة مظهرًا زيفها وتوليدها، ومحاميًا عن السيدة عائشة – رضى اللّه عنها – ومهاجمًا خصومها من الشيعة الذين ولدوا هذه النادرة عنها بغرض الإساءة إليها.

"هذا – حفظك اللّه – حديثٌ مصنوع، ومن توليد الرَّوافِض، فظنَّ الذي ولّد هذا الحديث، أنه إذا أضافه إلى ابن أبى عَتيق، وجعله نادرةً ومُلحة، أنه سيشيع، ويجرى عند الناس مَجْرَى الخبر عن أمّ حَبيبة وصفيَّة. ولو عرف الذى اخترع هذا الحديث طاعةَ الناس لعائشة – رضى اللّه عنها – لما طمِع فى جواز هذا عنه. وقال علىّ بن أبى طالب – كرّم اللّه وجهه –: "مُنِيتُ بأربعة: مُنِيت بأشجع الناس، يعنى الزُّبَيْر وأجودِ الناس، يعنى طَلْحَة؛ وأنضّ الناس، يعنى يَعْلَى بن مُنَبِّه؛ وأطوَعِ الناس فى الناس، يعنى عائشة"؛

---

(1) القول فى البغال، ص18.

ومن بعد هذا ، فأىُّ رئيس قبيلٍ من قبائل قُرَيش كانت تَبعث إليه عائشة – رضى اللّه عنها – رَسولاً ، فلا يُسارع، أو تأمره فلا يُطيع، حتى احتاجت أن تركب بنفسها؟ وأىّ شىء كان قبل الركوب من المُراسلة والمُراوضة والمُدافعة والتقديم والتأخير حتى اضطرَّها الأمر إلى الركوب بنفسها؟ وإنّ شرًّا يكون بين حَيَّيْن من أحياء قُريش، تَفاقَم فيه الأمرُ، حتى احتاجت عائشة – رضى اللّه عنها- إلى الركوب فيه، لَعظيمُ الخَطَر، مُستَفيضُ الذِّكر؛ فَمن هذان القبيلان؟ ومن أىّ ضرْبٍ كان هذا الشرّ؟ وفى أىّ شىءٍ كان؟ وما سببُه؟ ومَن نطق من جميع رجالات قُريش فعصَوْه وردُّوا قولَه، حتى احتاجت عائشة فيه إلى الركوب؟ ولقد ضربوا قواديم الجَمل، فلما برَك ومال الهَوْدَج صاح الفريقان: "أُمَّكم! أُمَّكم!" فأمرُ عائشة أعظم، وشأنها أجلّ، عند مَن يعرف أقدار الرجال والنساء، من أن يُجَوِّز مثلَ هذا الحديث المولَّد، والشرّ المجهول، والقبيلتين اللتين لا تُعْرَفان، والحديث ليس له إسناد؛ وكيف وابن أبى عَتِيق شاهِدٌ بالمدينة، ولم يعلم بركوبها، ولا بهذا الشرّ المتفاقِم بين هذين القبيلين؟ ثم ركبت وحدَها ، ولو ركبت عائشة لَما بقىَ مُهاجرىّ، ولا أنصارىّ، ولا أمير ولا قاضٍ إلّا ركب؟ فما ظَنكَ بالسُّوقة والحِشْوة، وبالدَّهْماء والعامّة"[1].

---

(1) القول فى البغال، ص18- 20.

ثم يذكر الجاحظ الرواة ذوى الميول الشيعية المتعصبة، الذين يظن أن بعضهم كان وراء توليد هذه النادرة ونشرها، يقول: "وما هو إلا أن ولد أبو مِخنف حديثًا، أو الشرْقِيّ بن القُطاميّ أو الكلبى أو ابن الكلبىّ أو لَقِيطٌ المُحارِبّى أو شَوْكَر أو عَطَاء الملط أو ابن دَأْب، أو أبو الحَسَن المدائنى ثم صوَّره فى كتابٍ، وألقاه فى الورَّاقين، [أو] رواه مَن لا يحصّل ولا يتثبت ولا يتوقّف، وهؤلاء كلّهم يتشيَّعون، وكان يونُس بن حَبيب يقول: يا عجَبًا للناس، كيف يكتبون عن حَمّاد وهو يصحِّف ويكذب ويلحَن ويكسِر!"[1].

وأخيرًا يذكر الجاحظ الرواة الموثوق بهم الذين تأخذ الأخبار عنهم؛ وذلك لشهرتهم بالصدق،ولتحريهم العدالة فى رواياتهم، يقول: "ومن أراد الأخبار فليأخذْها عن مثل قَتَادة، وأبى عمرو بن العَلاء وابن جُعْدُبة؛ ويونُس بن حَبيب، وأبى عُبَيْدَة، وَمَسْلَمَة بن مُحَارِب، وأبى عاصِم النَّبيل، وأبى عمر الضَّرير، وخلاَّد بن يزيد الأرقط، ومحمد بن حَفْص – وهو ابن عائشة الأكبر – وعُبَيْد اللّٰه ابن محمد – وهو ابن عائشة الأصغر – ويأخذها عن أبى اليَقْظَان سُحَيْم بن قادم. فهؤلاء وأشباههم مأمونون، وأصحاب تَوَقٍّ وخَوْف من الزوائد، وصَوْن لِمَا فى أيديهم، وإشفاق على عَدالتهم"[2].

(1) المصدر السابق، ص20- 21.

(2) المصدر السابق، ص21- 22.

بنـــاء النـــادرة

لم يحدثنا الجاحظ فيما وصلنا من مؤلفاته عن بناء النادرة، وطريقته – أو طرقه – فى نسجها وبثه الفكاهة فيها.

ولكننا نستطيع من تأمل نوادره أن نعرف بعض أساليبه فى بناء نوادره.

1- ولعل أول ما نلاحظه – فى حديثنا عن بناء النادرة عند الجاحظ – أن الجاحظ كان قلما يروى النوادر عن غيره، وإنما كان يؤلفها، وهو حريص على أن يؤكد أنه لا يروى الكثير من النوادر عن غيره من الرواة الذين اشتهروا برواية النوادر. فنراه يعلق على النوادر التى رواها عن غيره من بعض الرواة فى كتابه البخلاء بقوله: "هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا.

فأما أحاديث الأصمعى وأبى عبيدة وأبى الحسن فإنى لم أجد فيها ما يصلح لهذا الموضع إلا ما قد كتبته فى هذا الكتاب، وهى بضعة عشر حديثًا"[(1)].

وهكذا فالجاحظ يقر أن أكثر النوادر التى رواها فى كتاب البخلاء هى مما رآه بعينه، وسمعه بأذنه، أو دار معه،

---

(1) البخلاء، ص148.

ولكنه قلما ينقل نوادر غيره من الرواة المشهورين برواية النادرة فى عصره.

وهذا بلا شك يدل على اعتزاز الجاحظ بالنوادر التى يؤلفها ويصوغها بأسلوبه، فلسان حاله يقول: إنه مؤلف مبدع لما يذكره من نوادر، وما يعرضه مما هو من رواية غيره قليل.

وكلام الجاحظ هذا يؤكد ما ذكرناه من قبل من أن الجاحظ قد ولَّد الكثير من النوادر ونسبها لغيره، ولكنها مع ذلك من تأليفه، أو هى – على الأقل – صيغت بأسلوبه وطريقته؛ وهذا يعنى – أيضًا – أنها من إبداعه.

2- والجاحظ فى بنائه النادرة يحرص على التشويق فى عرض الحدث الأساسى بها، ويجعل القارىء مترقبًا ما سوف تنتهى إليه النادرة.

3- وأيضًا الجاحظ فى بنائه نوادره يهتم بعنصر المفاجأة فيها الذى يستثير القارىء والسامع للاندهاش، مما يستميله بقوة للضحك من هذه المفاجآت غير المتوقعة المثيرة للضحك.

4- كذلك يرسم الجاحظ الشخصيات التى بهذه النوادر بدقة، وبلمسة يغلب عليها التصوير الكاريكاتورى فى تضخيم طباع بعض الشخصيات فيها، أو شخصيات معينة بها.

5- وكذلك نرى الجاحظ فى بنائه لنوادره يبث فيها العديد من عناصر الفكاهة كعرضه للشخصيات الكاريكاتورية ولوسائل الفكاهة الأخرى كالمفارقة والتنكر والتكرار والمبالغة والتصوير الساخر والحوار المضحك.

6- ويغلب على هذه النوادر أنها قصيرة لا تتجاوز سطورًا قليلة، وتصاغ بأسلوب فيه تركيز واضح، ومع ذلك فإنها تنبض بالحياة، وتضحك من يقرؤها أو يسمعها بشدة.

وها نحن أولاء نعرض حكاية رواها الجاحظ على أنها خبر فى كتاب البرصان والعرجان، فجاءت بلا معالم فنية واضحة، فليس بها عناصر القصة فى عرض الأشخاص وصياغة الحدث المشوق.

يقول الجاحظ: "ومن الحُدْب: أبو مازنٍ الأحدب، وكان أحدب أعضد العظام، أضعف الناس قبل كلِّ شيء. وقد سمعتُه مع ذلك يقول: أنا لا أموت سويًّا! قالوا: ولَم؟ قال: لأنى لا آخذ الناسَ إلاَّ عَنوة!

وهو الذى دَقَّ عليه البابَ جَبَلٌ العَمِّىُّ بعد أن مضى من الليل وهدأت الرِّجل، فخرج إليه أبو مازنٍ الأحدبُ وهو لا يظنُّ أنه إنسان يريد أن يبيت عنده فلما رآه جبلٌ العمىُّ قال له: ليس نحن فى الصيِّف فأضيق على عيالك السَّطح، ولا نحن فى الشِّتاء فتكره

أكون قرب حُرمتك، ونحن فى الفَصْل، وقد تعشَّيت وإنّما خِفت الطائف، فدعنى أبيتُ بقيةَ ليلتى فى الدِّهليز، فى ثيابى التى علىّ، فإذا كان مع الفجر مضيتُ.

قال: ويلك، أنا واللّٰه سكرانُ ما أفهم عنك قليل ولا كثير. فأعاد عليه القول فقال: سكرانُ واللّٰه، ليس أفهمُ عنك! وأصفق البابَ فى وجهه. فضحك جَبلٌ، فمرَّ به الطائف فسأله عن شأنه، فَضحِك الطائف وشيَّعه إلى أهله"[1].

ولكننا نرى الجاحظ يعرض هذه الحكاية نفسها على أنها نادرة فى كتاب البخلاء، فنرى شيئًا آخر، نرى فنًّا يتوهج بالإبداع، فالنادرة هنا فيها تشويق فى عرض الحدث الذى بها، والحوار يكاد يجسد طبيعة الشخصين اللذين بها. ونرى بها أيضًا قدرة الجاحظ الكبيرة على تفجير الفكاهة منها، وإليكم هذه النادرة.

"وكان جَبلٌ خرج ليلاً من موضِع كان فيه، فخافَ الطائفَ، ولم يأمن المستقفى. فقال: لو دقَقْتُ البابَ على أبى مازن، فبتُّ عندَه فى أدنى بيت أو فى دِهليزه، ولم ألزِمْه من مؤنتى شيئًا، حتى إذا انصَدع عمودُ الصبح خرجتُ فى أوائل المدلجين.

(1) البرصان والعرجان، ص407- 408.

فدقّ عليه البابَ دقَ واثِق ودقّ مُدِلّ ودقّ من يخافُ أن يدْرِكه الطائف أو يقفوَه المستقفى، وفى قلبه عزُّ الكِفاية والثقة بإسقاط المؤنة. فلم يشكّ أبو مازن أنه دقّ صاحبِ هديّة، فنزل سريعًا.

فلما فَتح الباب وبصُر بجبل، بصُر بملَك الموت. فلمّا رآه جَبَل واجِمًا لا يُحيرُ كلمة، قال له: إنى خِفتُ معرَّة الطائف وعجلة المستقفى فملتُ إليك لأبيتَ عندك. فتساكرَ أبو مازن، وأراه أن وجُومه إنما كان بسَبَب السُّكر. فخلّع جوارحَه وخبّل لسانه، وقال: سكران واللّه، أنا واللّه سَكران. قال له جَبَل: كُن كيفَ شئتَ. نحنُ فى أيام الفَصْل، لا شتاء ولا صَيف، ولستُ أحتاجُ إلى سَطح فأغمّ عِيالك بالحرّ، ولستُ أحتاج إلى لِحاف فأكلفَك أن تؤثرنى بالدثار. وأنا كما ترى ثمِل من الشراب، شبعانُ من الطعام، ومِن منزِل فلان خرجتُ، وهو أخصَبُ الناس رَحْلاً. وإنما أريد أن تَدَعنى أغفِى فى دِهليزك إغفاءةً واحدة، ثم أقومُ فى أوائل المبكّرين. قال أبو مازن – وأرخى عينيه وفكّيه ولسانه، ثم قال –: سكران، واللّه، أنا سكران، لا واللّه ما أعقل أين أنا، واللّه إن أفهمُ ما تقول.

ثم أغلَقَ البابَ فى وجهه، ودخَلَ لا يشكّ أن عذره قد وَضَح، وأنه قد ألطف النظرَ حتّى وَقَعَ على هذه الحيلة"[1].

---

(1) البخلاء، ص39.

7- ومن الملاحظات التى نراها فى بناء الجاحظ لبعض نوادره أنه يجعل لها مقدمة لا تتعلق بالحدث الذى بها ولكنها تعطينا ملامح عن البطل الذى بها، وتدور عنه النادرة، كما نرى هنا.

"قال أبو القماقم: أوّل الإصلاح ألا يردّ ما صار فى يدى لك؛ فإن كان ما صار فى يدى لى فهو لى، وإن لم يكنْ لى فأنا أحقّ به ممن صيَّره فى يدى. ومن أخرَج من يده شيئًا إلى يدِ غيره، من غير ضَرورة، فقد أباحه لمن صيّره إليه. وتفريقك إياه مثلُ إباحته.

وقالت له امرأة: ويحك يا أبا القماقم إِنى قد تزوّجت زوجًا نهاريًّا، والساعة وقته، وليست علىَّ هيئة فاشتر لى بهذا الرغيف آسًا، وبهذا الفَلس دُهنًا، فإِنك تؤجر. فعسى الله أن يلقى محبَّتى فى قلبه. فيرزقَنى على يَدِك شيئًا أعيشُ به، فقد واللّهِ ساءَت حالى، وبلَغ المجهود منِّى؛ فأخذَهما وجعلها وجهه. فرأته بعدَ أيام، فقالت: سبحان الله أما رحمتى مما صنعتَ بى؟ قال: ويحكِ سقط والله منى الفَلس، فمن الغمّ أكلتُ الرغيف"[1].

8- وأغلب نوادر الجاحظ يمتزج فيها السرد بالحوار، ويكون السرد من أجل عرض الحدث، وكشف بعض التفاصيل التى قد تستغرق مساحة كبيرة إن عرضت عن طريق الحوار. فى

(1) المصدر السابق، ص124.

حين يكون الحوار – فى الغالب – لذكر تعليقات الأشخاص الذين بالنوادر، وتثير الفكاهة، كما نرى فى هذه النادرة.

"وقال أبو نُواس: كان معنا فى السفينة – ونحنُ نريد بَغداد – رجلٌ من أهل خراسان، وكان من عُقلائهم وفقهائهم. فكان يأكل وحده. فقلت له: لم تأكل وحدَك؟ قال: ليس علىَّ فى هذا الموضع مسألة: إنما المسألة على من أكلَ معَ الجماعة، لأنّ ذلك هو التكلُّف. وأكلى وحْدى هو الأصل وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل"[1].

9- وأيضًا من الظواهر البارزة فى نوادر الجاحظ أن بعضها مبنى على طريقة المناظرة والحجاج، فكثيرًا ما نرى فيها أشخاصًا يتناظرون، ولكنه حجاج مضحك؛ لأنه يدور– فى الغالب – حول أمور تافهة لا تتناسب مع اللغة العالية التى تبرز فى هذا الحجاج والأدلة التى تذكر فيه، كما نرى هذا فى هاتين النادرتين.

"وهذا خالدُ بنُ يزيد مولى المهالبة – هو خالَوَيه المُكَدِّى – وكان قد بلغ فى البخل والتكدِية وفى كثرة المال المبالغَ التى لم يَبْلغها أحد.

---

(1) المصدر السابق، ص24.

وكان ينزِل فى شقِ بنى تميم، فلم يعرفوه. فوقف عليه ذاتَ يومٍ سائلٌ، وهو فى مجلس من مجالسهم، فأدخل يده فى الكيس ليُخرج فلسًا – وفُلوس البصرة كبار – فغلِط بدرهم بَغلى، فلم يفطن حتى وضَعَه فى يد السائل. فلما فطن استردَّه، وأعطاه الفلسَ. فقيل له: هذا لا نظنه يحل، وهو بعد قبيح. قال: قبيحٌ عند من؟ إنى لم أجمع هذا المالَ بعقولكم، فأفرّقه بعقولكم ليس هذا من مساكين الدراهم، هذا من مساكين الفلوس. واللّه ما أعرفه إلا بالفِراسة"[1].

*　　*　　*

"ومثلُ هذا الحديث ما حدثنى به محمد بن يسير عن والٍ كان بفارس، إما أن يكونَ خالدًا أخُو مَهْرَوَيْهِ أو غيرَه، قال:

بينا هُوَ يومًا فى مجلس، وهو مشغول بحسابه وأمره، وقد احْتَجَب بجُهده، إذ نَجم شاعرٌ من بين يديه، فأنشده شعرًا مدحه فيه وقرّظه ومجّده. فلمّا فرَغ قال: قد أحسنتَ. ثم أقبل على كاتبه فقال: أعطه عشرةَ آلاف درهم. ففرِح الشاعر فرحًا قد يُستطار له، فلما رأى حاله قال: وإِنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقِع؟ اجعَلها عشرين ألفَ درهم. فكاد يخرجُ من جِلده. فلمّا رأى فرحَه قد أضعف، قال: وإن فرحك ليتضاعفُ على قدر تضاعف القول؟ أعطه يا فلان أربعين ألفًا. فكاد الفرحُ يقتُله.

---

(1) البخلاء، ص46.

فلمّا رجعتْ إليه نفسُه قال له: أنتَ – جُعلتُ فداك – رجل كريم، وأنا أعلمُ أنك كلما رأيتَنى قد ازددتُ فرحًا زدتَنى فى الجائزة، وقبولُ هذا مِنك لا يكونُ إلاّ من قلّة الشكر. ثمّ دعا له وخرج.

قال: فأقبلَ عليه كاتبه فقال: سُبحان الله! هذا كان يرضى منك بأربعين درهمًا، تأمرُ له بأربعين ألف درهم؟ قال: ويْلكَ! وتريد أن تعطيَه شيئًا؟ قال: ومِن إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق، إنما هذا رجلٌ سرَّنا بكلام، وسررناه بكلام. هو حينَ زعمَ أنّى أحسنُ من القمر، وأشدّ من الأسد، وأن لسانى أقطعُ من السيف، وأن أمرى أنفذُ من السِّنان جعلَ فى يدى من هذا شيئًا أرجعُ به إلى بيتى؟ ألسنا نعلمُ أنه قد كذبَ؟ ولكنه قد سرّنا حين كذبَ لنا، فنحنُ أيضًا نسرُّه بالقَول ونأمر له بالجوائز، وإِن كان كذِبًا، فيكون كذبٌ بكذب وقولٌ بقول. فأمّا أن يكون كذبٌ بصدق وقول بفعل، فهذا هو الخسران المبين الذى سمعتَ به"(1).

(1) البخلاء، ص26- 27.

مضامين نوادر الجاحـظ

ذكر الجاحظ فى مؤلفاته نوادر ذات مضامين متعدِّدة، فهناك نوادر تدور عن الأعراب، وهناك نوادر عن الحمقى، وهناك نوادر عن البخلاء، وهناك نوادر عن الخطباء، وهناك نوادر عن موضوعات أخرى عديدة.

وها نحن أولاءِ نعرض هنا المضامين التى عرض لها الجاحظ فى نوادره.

وأول ما نذكره هنا أن الجاحظ ذكر لنا أكثر النوادر التى تعجبه، وذلك بقوله: "وأنا أستطرف أمرين استطرافًا شديدًا: أحدهما استماع حديث الأعراب والأمر الآخر احتجاج متنازعين فى الكلام، وهما لا يحسنان منه شيئًا؛ فإنهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وإن تشدّد، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب"(1).

ولعل الجاحظ كان يعجبه نوادر الأعراب لما فيها من فصاحة واضحة فى اللفظ، ولما فيها أيضًا من طرافة نابعة من تصرفات الأعراب التلقائية فيها، وقد لا تتفق مع ما يأمر به الدين وما هو معتاد فى حياة الناس فى الحضر.

---

(1) الحيوان، 3/6.

وكذلك ليس غريبًا أن يعجب الجاحظ المفكر المعتزلى بالنوادر التى يحاول فيها أشخاص بسطاء الحديث عن بعض مسائل الكلام وهم لا يعلمون عنها شيئًا.

وها نحن أولاء نبدأ بعرض بعض المضامين التى دارت حولها بعض نوادر الجاحظ.

1-نوادر الأعراب

ذكرنا منذ قليل إعجاب الجاحظ بنوادر الأعراب، وعللنا لإعجابه بهذه النوادر. ولا يخفى ما يمكن أن يكون وراء بعض هذه النوادر من دلالات سياسية فى محاولة الشعوبية انتقاص الأعراب بنسبة بعض المخازى والعيوب إليهم فيها[1].

وخلال عرض الجاحظ نوادر الأعراب فى مؤلفاته ركز على بعض الأمور، منها أنه اهتم بذكر ما فيها مما يدل على فصاحة الأعراب، وجهلهم مع ذلك بقواعد النحو، فهم أهل اللغة ومعدنها، ولا يحتاجون لهذه القواعد التى قننت لمن يحاول تعلم اللغة العربية من غير أهلها.

وهاهى ذى نادرة نرى فيها فصاحة أعرابى وجهله بعلم النحو.

(1) انظر فى هذا: د. وديعة طه النجم: الفكاهة فى الأدب العباسى. مجلة عالم الفكر. الكويت، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، 1982م، ص30.

"وقال الربيع: قلت لأعرابىٍّ: أتَهْمِزُ إسرائيل؟ قال: إنِّى إذًا لَرَجُلُ سَوْء؟ قلت: أتجرّ فِلَسطين؟ قال: إنِّى إذًا لَقَوِىّ"[1].

وهناك نوادر رواها الجاحظ عن الأعراب تظهر عدم فهمهم بعض أمور الدين، وتعاملهم مع بعض شعائره بفطرتهم مما يثير الضحك، كما نرى فى هاتين النادرتين.

"ورفع أعرابىّ يدَه بمكة قبل الناس فقال: اللهمَّ اغْفِرْ لى قبل أن يدهمَك النّاس!"[2].

* * *

"قال: وذكر ناسٌ رجلاً بكثْرة الصَّوم وطُول الصلاة وشِدّة الاجتهاد، فقال أعرابىٌّ كان شاهدًا لكلامهم: بئس الرجل هذا، يظنُّ أنّ اللّه لا يرحمه حتَّى يعذِّب نفسَه هذا التعذيب"[3].

وبعض النوادر التى رواها الجاحظ عن الأعراب تظهر ما اتصف به الأعراب من صراحة وجرأة عند حديثهم، كما نرى فى هاتين النادرتين.

---

(1) الحيوان، 18/3.

(2) البيان والتبيين، 282/3.

(3) المصدر السابق، 322/2.

"قال: ونظر أميرٌ إلى أعرابىٍّ فقال: لقد همَّ لى الأميرُ بخير؟ قال: ما فعلتُ؟ قال: فبشَرٍّ؟ قال: وما فعلتُ؟ قال: إنّ الأمير لمجنون!"[1].

* * *

"وذكروا عن سلاَّم أبى المنذر قال: تكلَّم زيدُ بن صوحان، فجعل أعرابىّ يسمع كلامه ويتعجب، ثم قال: إنَّ كلامك ليُعجبنى وإنَّ يدك لتُريبنى! فقال: إنّها اليُسْرَى يا أعرابىّ"[2].

كذلك عرض الجاحظ لما عرف به بعض الأعراب من شره فى حب الطعام كما نرى فى هذه النادرة.

"قال: قيل لأعرابىّ: ما اسمُ المرق عندكم؟ قال: السَّخين. قال: فإذا بَرُدَ؟ قال: لا ندعُه حتّى يبرُد"[3].

وبعض نوادر الأعراب التى ذكرها الجاحظ فى مؤلفاته تعرض جانبًا من العلاقات داخل أسرة الأعرابى، وبخاصة علاقته مع زوجته كما نرى فى هاتين النادرتين: "وسمع عمر بن الخطاب رحمه اللّه أعربيًّا يقول: اللهمَّ اغفر لأمّ أوْفَى. قال: ومَن أمّ أوفى؟

(1) المصدر السابق، 6/4.

(2) البرصان والعرجان، ص383.

(3) البيان والتبيين، 9/4.

قال: امرأتى، وإنّها لحمقاء مِرْغامَةٌ[1]، أكول قامَّةٌ[2] لا تَبقَى لها خَامَّةٌ[3]، غير أنّها حسناء فلا تُفْرَك، وأمُّ غِلمان فلا تُترك"[4].

* * *

"أعرابىّ خاصمته امرأته إلى السُّلطان، فقيل له: ما صنَعَتَ؟ قال: خيرًا، كَبَّها اللّه لوجهها، وأمَرَ بى إلى السجن!"[5].

وكما صورت العديد من النوادر الأعرابى على أنه شخص غريب فى تصرفاته التى لا تناسب أهل الحضر، فقد صورت نوادر أخرى تصرفات المرأة الأعرابية بما فيها من غرابة، وصورت أيضًا تعليقاتها المثيرة للضحك حول بعض الأمور، كما نرى فى هذه النادرة.

"قالوا: ودفَعُوا إلى أعرابيَّة عِلكًا[6] لتمضَغَه، فلم تفعلْ، فقيل لها فى ذلك فقالت: ما فيه إلاَّ تعبَ الأضراس، وخَيْبة الحنجرة"[7].

---

(1) المرغامة: المبغضة لبعلها.

(2) قمّ ما على المائدة: أكله فلم يدع منه شيئًا.

(3) الخامُّ: ما تغير ريحه من لحم أو لبن ونحوهما. يقال خم وأخم أيضًا.

(4) البيان والتبيين، 95/2، وانظر أيضًا نادرة أخرى فى المصدر السابق، 180/2.

(5) المصدر السابق، 7/4.

(6) العلك؛ بالكسر: ضرب من صمغ الشجر كاللُبان، يمضغ فلا ينماع.

(7) البيان والتبيين، 95/2.

وأشارت بعض نوادر الأعراب التى ذكرها الجاحظ فى مؤلفاته إلى حياة الأعراب فى باديتهم، والحيوانات التى ترافقهم فيها ويأكلونها. كما يصور لنا هذا هذه النادرة.

"قال: وسأل مَدَنىٌّ أعرابيًّا قال: أتأكلون الضَّبَّ؟ قال: نعم. قال: فاليربوع؟ قال: نعم. قال: فالورَل؟ قال: نعم. قال: أفتأكلون أمّ حُبَين؟ قال: لا. قال: فلْيَهْنِ أمَّ حُبَينٍ العافية!"[1].

2-نوادر البخلاء

عرض الجاحظ العديد من نوادر البخلاء فى كتاب البخلاء، وفى مؤلفات أخرى له ككتاب الحيوان.

ويغلب على بخلاء الجاحظ أنهم أصحاب كلام؛ ولذا فهم مجادلون، ويكثر جدالهم خلال هذه النوادر، ويضحكنا ما فى طنطنة حوارهم من مبالغة فى حين أن المضمون الذى يتجادلون عنه تافه، وهو يتعلق بالبخل، لا يستحق هذه الطنطنة.

ومن أطرف نوادر البخلاء التى عرضها الجاحظ فى كتابه البخلاء نوادر أهل مرو تلك المدينة التى جعل الجاحظ أهلها – وحيواناتها فى كتابه – يتصفون بالبخل.

وها نحن أولاء نذكر بعض النوادر التى ذكرها الجاحظ عن بخلاء مرو.

---

(1) الحيوان، 143/6.

"نبدأ بأهلِ خُراسان، لإكثارِ الناس فى أهل خراسان، ونخص بذلك أهل مرَو، بقدر ما خصّوا به:

قال أصحابنا: يقول المروَزىُّ للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوسُه: تغديتَ اليوم؟ فإن قال: نعم، قال: لولا أنك تغدّيتَ لغدّيتك بغَداء طيّب، وإن قال: لا. قال: لو كنتَ تغدّيت لسقيتُك خمسةَ أقداح. فلا يصيرُ فى يده على الوجهين قليل ولا كثير"[1].

* * *

"وزعموا أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا، فتناهدوا وتلازقوا فى شراء اللحم، فإذا اشترَوا اللحم قَسموه قبلَ الطبخ، وأخَذَ كلُّ إنسان منهم نصيبَه فشكّه بخوصة أوبخيط، ثمّ أرسَله فى خل القِدر والتوابل. فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطَه وقد علمه بعلامة ثم اقتسَموا المرَق، ثم لا يزال أحدُهم يسلُّ من الخيط القِطعة بعد القطعة، حتّى يبقى الحبلُ لا شىءَ فيه. ثم يجمعون خيوطهم. فإن أعادوا الملازقة أعادوا تلك الخيوط، لأنها قد تشرّبت الدسَم، فقد رَوِيَت. وليس تناهدُهم من طريق الرغبة فى المشاركة، ولكن لأن بضعة كل واحدٍ منهم لا تبلغ مقدارَ الذى يُحتمل أن يُطبخ وحدَه، ولأنّ المؤنة تخفُّ أيضًا والحطَب والخل والثوْم والتوابل، ولأن القدْرَ الواحدة أمكنُ من أن يقدِر كلُّ واحد

(1) البخلاء، ص17.

منهم على قِدر. وإنما يختارون السِّكباج لأنها تبقى على الأيام، وأبعدُ من الفساد" [1].

*　　*　　*

"ومن أعاجيبِ أهل مرْو ما سَمعناه من مَشْيَختنا على وجه الدهر، وذلك: أنّ رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحجُّ ويتَّجر، وينزِل على رجل من أهل العراق، فيكرمُه ويكفيه مؤنته. ثم كان كثيرًا ما يقول لذلك العراقىّ: ليتَ أنى قد رأيتك بمرو، حتى أكافئك، لقديم إحسانك، وما تجدّد لى من البِرّ فى كل قدمَة. فأما هُهنا فقد أغناك اللّه عنى.

قال: فعرضت لذلك العراقىِّ بعد دهر طويل حاجةٌ فى تلك الناحية، فكان ممَّا هوَّن عليه مكابدة السفر ووَحشة الاغتراب، مكانُ المرْوَزى هنالك. فلمَّا قَدِم مضى نحوه فى ثياب سَفره وفى عمامته وقَلَنسوته وكسائه، ليحطَّ رحلَه عنده، كما يصنع الرجل بثقتِه وموضع أنسه. فلمَّا وجده قاعدًا فى أصحابه، أكبَّ عليه وعانقه، فلم يره أثبته، ولا سأل به سؤال من رآه قط. قال العراقىُّ فى نفسه: لعلّ إنكاره إيَّاى لمكان القِناع، فرمى بقناعه، وابتدأ مُساءَلته، فكان له أنكر. فقال: لعلّه أن يكون إنما أتِىَ من قِبَل العمامة، فنزعها ثم انتسب، وجدَّد مُساءَلته، فوجده أشدَّ

---

(1) المصدر السابق، ص23.

ما كان إنكارًا. قال: فلعله إنما أتى من قبل القلنسُوة. وعلم المروزىُّ أنه لم يبقَ شىء يتعلق به المتغافل والمتجاهل، فقال: لو خرجتَ من جِلدك لم أعرفكْ. ترجمة هذا الكلام بالفارسية: "اكرازپوست پارون بيائى نشناستم"[1].

* * *

"ورأيتُ أنا حمَّارة منهم، زُهاء خمسين رَجُلاً، يتغدَّون على مباقلَ بحضرة قريةِ الأعراب، فى طريق الكوفة، وهم حجاج. فلم أر من جميع الخمسينَ رجلَين يأكلان معًا، وهم فى ذلك متقاربون، يحدِّث بعضُهم بعضًا. وهذا الذى رأيتُه منهم من غريب ما يتّفق للناس"[2].

* * *

"وزعم أصحابنا أنّ خراسانية ترافقوا فى منزل، وصَبَروا عن الارتفاق بالمصباح ما أمكن الصبر. ثم إنهم تناهدوا وتخارجوا، وأبى واحدٌ منهم أن يعينهم، وأن يدخل فى الغرم معهم. فكانوا إذا جاء المصباحُ شدّوا عينه بمنديل، ولا يزالُ ولا يزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفؤوهُ أطلقوا عينيه"[3].

---

(1) المصدر السابق، ص22.

(2) البخلاء، ص18.

(3) المصدر السابق، ص18.

3-نوادر الحمقى والمغفلين

نوادر الحمقى والمجانين وأخبارهم تضحكنا؛ لأنهم فيها يقومون بأفعال غريبة ويقولون كلامًا لا يتفق مع العقل والمنطق، وأحيانًا نرى بعضهم ينطق بالحكمة التى لا تتوقع من مجانين مثلهم مما يجعلنا نضحك أيضًا إذ صدر الشىء من غير المتوقع منه.

وقد ذكر الجاحظ فى بعض مؤلفاته نوادر عن الحمقى والمجانين، وهاهى ذى بعض النوادر التى ذكرها عنهم.

"وقالوا: شَرَدَ بعيرٌ لهبنَّقَة القيسى – وبجنونه يُضرب المثل – فقال: مَن جاء به فله بعيران. فقيل له: أتجعل فى بعير بعيرين؟ فقال: إنّكم لا تعرفون فَرْحة الوِجدان واسمه يزيدُ بن ثَرْوان، وكنيته أبو نافع"[1].

* * *

"الهيثم، عن الضَّحاك بن زِمْلٍ قال: بينا معاوية بن مرْوانَ واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحّانٍ وحمارٌ له يدور بالرَّحى وفى عنقه جُلجل إذ قال للطحّان: لِمَ جعلت فى عنق هذا الحمارِ هذا الجلجل؟ قال: ربَّما أدركتْنى سآمةٌ أو نعسَة، فإذا لم أسمَعْ صوت الجُلجلِ علمتُ أنه قد نام فصحت به. قال معاوية:

---

(1) البيان والتبيين، 242/2.

أفرأيت إن قامَ ثم [مال][❖] برأسه هكذا وهكذا – وجعل يحرّك رأسه يمنةً ويسرة – ما يُدْريك أنت أنّه قائم؟ فقال الطحَّان: ومَن لى بحمارٍ يَعْقِلُ مثلَ عَقْلِ الأمير؟"[1].

* * *

"وكانت بالكوفة امرأةٌ رعناءُ يقال لها مُجيبة، فقفد بُهلولاً فتى كانت مجيبة أرضعته، فقال له بُهلول: كيف لا تكون أرعن وقد أرضعتك مُجيبة؟ فواللّه لقد كانت تزُقُّ لى الفَرخَ فأرى الرُّعونةَ فى طيرانه!"[2].

* * *

"وحدثنى ثمامة بن أشْرس قال: كان رجلٌ ممرور يقوم كلَّ يومٍ فيأتى دالِيةً لقوم، ولا يزالُ يَمْشى مع رجال الدالية على ذلك الجذع ذاهبًا وجائيًا، فى شدَّة الحرِّ والبرد. حتَّى إذا أمسى نزل إليهم وتوضَّأَ وصلَّى، وقال: اللَّهُمَّ اجعلْ لنا مِنْ هذا فَرجًا ومَخْرجًا! ثمَّ انصرف إلى بيته. فكان كذلك حتّى مات"[3].

* * *

(❖) فى الأصل: قال.

(1) البيان والتبيين، 2/261.

(2) المصدر السابق، 2/231.

(3) الحيوان، 3/30.

"قال أبو الحسن: دعا بعضُ السلاطين مجنونين ليحركهما فيضحك مما يجىء منهما، فلما أسمعاه وأسمعهما غضب ودعا بالسيف، فقال أحدُهُما لصاحبه: كنَّا مجنونَين فصرنا ثلاثة!"[1].

4-نوادر المدعين

كان الجاحظ خبيرًا بالنفس الإنسانية، وقد وصف نفسه فى أحد كتبه أنه من الذين يتصفحون النفوس الإنسانية، ولديه قدرة كبيرة على كشف زيف المدعين والمخادعين.

ومن نوادره التى عرضها نوادر المدعين، وهاتان نادرتان ذكرهما عن مدعيين.

"فمن الاحتجاجات الطيِّبة، ومن العِلل الملهية، ما حدَّثنى به ابن المدينى قال: تحوَّل أبو عبد الله الكرْخىُّ اللِّحيانىُّ إلى الحَرْبيَّة[2] فادَّعى أنّه فقيه، وظنَّ أنَّ ذلك يجوزُ له؛ لمكانِ لحيته وسَمْته. قال: فألقى على باب داره البوارىّ[3]، وجلس وجلس إليه بعضُ الجيران، فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبدِ اللّهِ! رجلٌ أدخل إصبَعَه فى أنفه فخرَج عليها دمٌ، أىَّ شىءٍ يصنع؟! قال: يحتجم. قال: قعدتَ طبيبًا أو قعدتَ فقيهًا؟"[4].

* * *

(1) البيان والتبيين، 231/2.
(2) الحربية: محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب، تنسب إلى حرب بن عبد الله البلخى الراوندى، أحد قواد المنصور.
(3) البورى، والبورية والبارى، والبارية والبارياء والبورياء: الحصير المنسوج.
(4) الحيوان، 3/7- 8.

قال الجاحظ: "حَدَّثنى ثُمَامة بن أشْرَس قال:

شهدت رجلاً يومًا من الأيام وقد قدَّم خصمًا له إلى بعض الولاة، فقال: أصلحك اللّه، ناصبى، رافضى، جهمى، مشبّه، مجبر، قَدَرى يشتم الحجاج بن الزبير الذى هدم الكعبة على عَلىّ ابن أَبى سفيان، ويلعن معاوية بن أَبى طالب، فقال له الوالى: ما أدرى مما أتعجب! من علمك بالأنساب، أو من معرفتك بالمقالات؟ فقال: أصلحك اللّه ما خرجتُ من الكُتَّابِ حتى تعلّمت هذا كله"[1].

5-نـوادر القصـاص

أما عن القصاص فكان فيهم كثير مدعون للعلم، ولكنهم فى حقيقة الأمر جاهلون! ولذلك وردت كثير من النوادر تتندّر بجهلهم وعجيب تصرفاتهم.

وها هما تان نادرتان ذكرهما الجاحظ عن هذه الطائفة من القصاص.

"وكان عندنا بالبصرة قاصٌّ أعمى، ليس يحفظ من الدنيا إلاّ حديثَ جِرجِيس، فلما بكى واحدٌ من النّظّارة قال القاصّ: أنتم من أىِّ شىءٍ تبكون! إنما البلاء علينا مَعاشِرَ العُلَماءِ!"[2].

* * *

(1) تاريخ مدينة دمشق، 434/45.

(2) البيان والتبيين، 15/4.

"وقال أبو كعب: كنَّا عند عيّاشِ بن القاسم، ومعنا سَيْفَويه القاصّ، فأُتينا بفالوذَجة حارة، فابتلَع منها سَيفويه لقمةً فغُشِيَ عليه من شدّة حرّها، فلما أفاق قال: لقد مات لى ثلاثةُ بنينَ ما دخل جوفى عليهم من الحُرقة ما دخل جوفى من حُرقة هذه اللقمة!"[1].

6-نوادر الخطباء

أما عن الخطباء ونوادرهم، فقد التفت الجاحظ إلى أن هناك أشخاصًا اضطروا للوقوف فى موقف الخطابة دون خبرة لديهم بهذا الأمر، فصدرت عنهم تصرفات وأقوال تثير الضحك، كما نرى فى هذه النوادر التى عرضها عن بعض الخطباء.

"وقيل لرجل من الوجوه: قمْ فاصعد المنبر وتكلمْ. فلما صعِدَ حَصِرِ وقال: الحمد لله الذى يرزُق هؤلاء! وبقى ساكنًا، فأنزلوه"[2].

*   *   *

"وصعِد آخر فلما استوى قائمًا وقابل بوجهه وجوه الناس وقعت عينُه على صَلْعَة رجُل فقال: اللّهم العَن هذه الصَّلْعة!"[3].

*   *   *

---

(1) المصدر السابق، 339/2.

(2) البيان والتبيين، 251/2.

(3) المصدر السابق، 251/2.

"وقيل لوازعٍ اليشكُرىّ: قم فاصعد المنبر وتكلم. فلما رأى جَمْع الناس قال: لولا أنّ امرأتى حملتْنى على إتيان الجمعةِ اليوم ما جَمَّعتُ، وأنا أشْهِدُكم أنّها منِّى طالقٌ ثلاثا!"[1].

7-نوادر أتباع بعض العقائد والفرق

ليس بغريب أن نرى الجاحظ المتكلم المفكر ينقد بعض العقائد والمذاهب والأشخاص الذين ينتسبون إليها فى بعض النوادر التى يذكرها، كما نرى فى هذه النوادر.

"وزعم المجوس أنَّ الناسَ من ولد مهنة ومهنينة، وأنَّهما تولدا فيما بينَ أرحام الأرَضين، ونطفتين ابتدرتا من عينَى ابن هُرمُز حين قتله هرمز. وحماقات أصحابِ الاثنَين كثيرةٌ فِى هذا الباب. ولولا أنِّى أحببْتُ أن تسمَعَ نوعًا من الكلام، ومبلغَ الرأى، لتُحدِثَ للّه تعالى شكرًا على السلامة، لما ذكرتُ كثيرًا من هذا الجنس"[2].

* * *

وقال المَرِيسىُّ[3] لأبى الهُذيل بحضرة المأمون، بعد كلامٍ جرى: كيف ترى هذه السِّهام؟ قال: ليِّنة كالزُّبد، حلْوة

(1) المصدر السابق، 251/2.

(2) الحيوان، 190/1.

(3) هو بشر بن غياث المريسى، صاحب المريسية، من مرجئة بغداد.

كالشُّهد، فكيفَ ترى سهامَنا؟ قال: ما أحسستُ بها، قال: لأنَّها صادفتْ جَمادًا"[1].

* * *

"وذكر محمَّدُ بنُ سلاَّم عن أبانِ بنِ عثمانَ قال: قال رجلٌ من أهل الكوفة لهشامِ بن الحكم: أتُرَى اللَّهَ ﷻ فى عدْله وفضله كلَّفنا ما لا نطيقُ ثمَّ يعذِّبُنا؟! قال: قدْ واللَّه فعل، ولكنَّا لا نستطيع أنْ نتكلَّم به!"[2].

* * *

"قال: وسُئِل حفْصُ بن غِياث[3] عن فِقه أبى حنيفة، قال: كانَ أجهَلَ النَّاسِ بما يكون، وأعرفَهم بما لا يكون"[4].

8-نوادر النساء

لعل الجاحظ من أكثر كتاب العربية القدماء الذين خبروا نفسية المرأة، ودافعوا عنها فى مؤلفاتهم، مثل كتاب "النساء"،

---

(1) المصدر السابق، 166/7.

(2) المصدر السابق، 11/3، وهشام بن الحكم رأس من رؤوس الشيعة وكلامه فى هذه النادرة لا يتفق مع صحيح العقيدة، وفيه خروج عن الدين.

(3) هو حفص بن غياث بن طلق، ولاه هارون الرشيد القضاء ببغداد، ثم ولاه قضاء الكوفة، فمات بها سنة 194هـ. وكان زاهدًا ورعًا.

(4) الحيوان، 19/3.

وكتاب "الجوارى والغلمان"، وكتاب "القيان".

وليس بعجيب إذًا أن نرى بعض الدراسات فى عصرنا تتناول صورة المرأة فى أدب الجاحظ، وكذلك ليس غريبًا أن يذكر الجاحظ بعض النوادر عن النساء يعرض فيها بعض الأمور الخاصة بهن، كما نرى فى هذه النوادر.

"وزعموا أنّ رجلاً نظرَ إلى امرأَة حسْناء ظريفةٍ، فألحّ عليها، فقالت: ما تنظر؟ قُرَّة عينك، وشىءُ غيرك!"[1].

* * *

"ولقد ركبت عجوزٌ سندية ظهرَ بعيرٍ، فلما أقبَلَ بها هذا البعيرُ وأدبر وطمَر[2]، فمخَضها مَرَّةً مخضَ السقاء[3]، وجعلَها مَرَّةً كأنَّها ترْهَزُ[4] فقالت بلسانها – وهى سنديّةٌ أعجميَّة – أخزَى اللّه هذا الذَّمَل؛ فإِنّه يذكِّر بالسَّرِّ! تريد: أخزى اللّه هذا الجمل، فإنه يذكِّر بالشر. حدثنا بهذه النادرة محمَّد بن عبَّاد بن كاسب"[5].

* * *

(1) الحيوان، 260/6.

(2) طمر: وثب.

(3) المخض: التحريك الشديد.

(4) رهزها: حركها فارتهزت هى.

(5) المصدر السابق، 292/3.

"قال يزيد: وكانت لعيسى بن علىٍّ مَولاة عجوزٌ خُرَاسانيةٌ تصرُخ بالليل من ضَرَبان ضرس لها، فكانت قد أرَّقت الأميرَ إسحاق، فقلت له: إنَّها مع ذلك لا تَدَع أكْلَ التمر! قال: فبعث إليها بالغداة فقال لها: أتأكلين التَّمر بالنَّهار وتصِيحينَ باللَّيل؟ فقالت: إذا اشتهيتُ أكلت وإذا أوجعَنى صِحت!"[1].

9-النوادر الماجنة

لم يكن الجاحظ ومؤلفو عصره – وما تلاه من عصور قبل عصرنا الحديث – يجدون حرجًا فى ذكر ألفاظ المناكح فى النوادر والأخبار والأشعار، وكذلك لم يكونوا يجدون حرجًا فى ذكر الحكايات والنوادر الماجنة بالتفاصيل التى تحدث فيها.

ولكننا فى عصرنا هذا الذى تشارك فيه المرأة الرجل كل أعباء الحياة – لا نسوغ هذا الأمر فهو يتنافى مع قيمة الحياء.

وبالطبع لا نستطيع فى هذا الموضع ذكر النوادر الماجنة التى عرضها الجاحظ، ولكننا نشير لبعضها[2]، ونذكر منها ما ليس فيها تصريح واضح بألفاظ المناكح، كهاتين النادرتين.

* * *

---

(1) المصدر السابق، 31/3.

(2) انظر فى هذا: الحيوان، 115/1؛ 260/6- 261، والبيان والتبيين، 15/4، والقول فى البغال، ص32.

"وقال أبو عمرو المدينىّ لو كانت البلايا بالحِصَص، ما نالنى كما نالنى: اختلفت الجارية بالشاة إلى التَّيَّاس اختلافًا كثيرًا، فرجعت الجاريةُ حاملاً والشاة حائلا"[1].

* * *

"قال: وكتب الحجّاج إلى الحكم بن أيوب[2]: "اخطُبْ على عبد اللّه بن الحجّاج امرأةً جميلةً من بعيد، مليحةً من قريب، شريفةً فى قومها، ذليلةً فى نفسها، أمَـةً لبلعهـا". فكتـب إليـه: "قد أصبتُها لولا عِظَم ثدييها!". فكتب إليه الحجّاج: لا يَحسُن نحرُ المرأة حتَّى يَعظُم ثدياها"[3].

10- نوادر عن أصحاب العاهات

لم يرو الجاحظ نوادر أصحاب العاهات ليسخر من عاهاتهم،بل رواها؛ ليعبر عن وجود صفات إيجابية فيهم لم تحل هذه العيوب من ظهورها كقدرتهم على فصاحة الكلام والرد المفحم الساخر، كما نرى فى هذه النوادر.

---

(1) الحيوان، 469/3.

(2) هو الحكم بن أيوب بن الحكم بن عقيل الثقفى، زوج زينب بنت يوسف، وهى أخت الحجاج. ولما ولى الحجاج العراق استعمل الحكم بن أيوب على البصرة، ثم عزله وولى غيره، ثم رده إليها.

(3) البيان والتبيين، 8/4.

"وحدَّثنى المكّىّ قال: كان رجلٌ يقود أعْمى بكِراء، وكان الأعمى ربما عَثَرَ العَثْرَة ونُكبِ النّكبة، فيقول: "اللَّهمَّ أبْدِل لى به قائدًا خيرًا منه! قال: فقال القائد: اللَّهُمَّ أبْدِلْ لى بهِ أعَمى خيرًا لى منه"[1].

* * *

"قال أبو الحسن[2]: سقط أحدبُ فى بئر فاستوت حَدَبتُه وصار آدر[3]، فلما جاءه الناس يهنئونه قال: الذى جاء أَشَرُّ من الذى ذَهَب"[4].

* * *

"ووقع بين شيخٍ أحدبَ وبين رجل شرٌّ، فقال له الرجل: واللّه لئن ركَلْتُ حَدَبتك هذه رَكلة لأسوِّيَنَّا بظهرك! قال: وأُمِّك إنَّك إذًا لعظيم البَرَكة!"[5].

---

(1) الحيوان، 3/30- 31.

(2) هو أبو الحسن المدائنى.

(3) الحدبة، بالتحريك: موضع الحدب فى الظهر الناتىء، وهو دخول الصدر وبروز الظهر. والآدر من الأدرة، وهو انتفاخ الخصية، أو إصابتها بالفتق.

(4) البرصان والعرجان، ص408.

(5) المصدر السابق، ص408.

11- نوادر تتعلق بإبليس

ومن الطريف أن نرى الجاحظ روى عدة نوادر فى بعض كتبه عن إبليس، وفى أكثرها يتم السخرية من إبليس، كما تصوّر لنا هذا هذه النوادر.

"وذكر قومٌ إبليس فلعنوه وتغيَّظوا عليه، فقال أبو حازم الأعرج: وما إبليس؟! لقد عُصِيَ فما ضَرّ، وأُطيعَ فما نَفَع"[1].

* * *

"قال: ودخل أبو حازمٍ مسجدَ دِمشق، فوسْوس إليه الشيطانُ، إنّك قد أحدَثْتَ بعد وضوئك. قال: أوَقَدْ بلَغ هذا من نصيحتك!"[2].

* * *

وروى الهيثم عن داود بن أبى هند، قال: سئل الشعبى عن لحم الفيل، فتلا قولَه عز ذكره: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ إلى آخر الآية. وسُئل عن لحم الشَّيطان فقال: نحن نرضى منه بالكَفَاف"[3].

---

(1) البيان والتبيين، 152/3.

(2) المصدر السابق، 152/3.

(3) الكفاف، بالفتح: هو ما كان بقدر الحاجة، لا فضل فيه ولا نقص، وانظر النادرة فى: الحيوان، 170/6.

12- نوادر يكون الجاحظ طرفًا فيها

يروى الجاحظ كثيرًا من المواقف التى حدثت له مع بعض الناس، وفى كثير من هذه المواقف طرافة، ويدخل بعضها فى إطار النادرة، وقد روت كتب التاريخ والأدب كثيرًا من النوادر التى تصور الجاحظ فيها على أنه مضحك، وفيها يتم السخرية من شكله، وقد شككنا من قبل فى صحة مثل هذه النوادر.

ومن الملاحظ أن كثيرًا من النوادر التى عرضها الجاحظ – وكان طرفًا فيها – يحاور فيها أشخاصًا ظرفاء، أو حمقى، ويستدرجهم فى حواره الطريف بحيث يولّد الفكاهة من إجاباتهم على كلامه، كما نرى فى هذه النوادر.

"وكان عندنا حارسٌ يكنى أبا خزيمة، فقلت يومًا – وقد خطَر على بالى – : كيفَ اكتنَى هذا العِلْجُ الأَلْكَنُ بأبى خزيمة؟ ثمّ رأيْته فقلت له: خبِّرنى عنك، أكان أبوك يسمَّى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فجدُّك أو عمك أو خالك؟ قال: لا. قلت: فلك ابنُ يسمَّى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فكان لك مولى يسمى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فكان فى قريتِك رجلٌ صالح أو فقيهٌ يسمى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فلم اكتنيت بأبى خزيمة، وأنتَ عِلجٌ ألْكَن، وأنتَ فقيرٌ، وأنت حارس؟ قال: هكذا اشتهيت. قلت: فلأَىِّ شىءٍ اشتَهيتَ هذه الكنيةَ من بينِ جميع الكنى؟ قال: ما يُدرينى. قلتُ: فتَبيعُها

السَّـاعَة بـدينارٍ، وتَكتَنـى بـأىِّ كنيـةٍ شـئت؟ قـال: لا وَاللّهِ، ولا بالدُّنْيا وما فيها!"[1].

*　*　*

وقلتُ له[2] مرَّة: قد رضيتَ بأَن يقالَ: عبدُ اللّه بخيلٌ؟ قال: لا أعدَمنى اللّه هذا الاسم. قلتُ: وكيفَ؟ قال: لا يقالُ فلانٌ بخيلٌ إلاّ وَهُو ذُو مال، فسلم إلىَّ المال، وادعُنى بأىِّ اسمٍ شئت. قلتُ: ولا يقالُ أيضًا فلانٌ سخىّ إلاّ وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسمُ الحمدَ والمال، واسمُ البُخل يجمعُ المال والذمّ. فقد اخترتَ أخسَّهما وأوضَعَهما. قال: وبينَهما فرق: قلتُ: فهاتِه. قال: فى قَوْلهم بخيل تثبيتٌ لإقامة المال فى مِلكه، وفى قولهم سخىٌّ إخبارٌ عن خروج المال من مِلكه. واسمُ البَخيل اسمٌ فيه حِفظ وذم، واسمُ السخىِّ اسمٌ فيه تضييعٌ وحمد. والمالُ زاهر نافع مُكرِم لأهله معزٌّ، والحمدُ ريحٌ وسُخرية، واستماعُك له ضعفٌ وفسولة وما أقل غَناء الحمدِ – واللّه – عنه، إذا جاع بطنهُ، وعرىَ جلدُه، وضاع عياله، وشمِت به من كان يَحسُده"[3].

*　*　*

(1) الحيوان، 28/3.

(2) يقصد الجاحظ بخيلاً يدعى الحزامى.

(3) البخلاء، ص62.

ويقول الجاحظ:

"وبينما أنا جَالسٌ يومًا فى المسجِد مع فِتيانٍ من المسجديِّين مما يلى أبواب بنى سليم، وأنا يومئذٍ حَدث السّنّ إذ أقْبَلَ أبو سَيف الممرور – وكان لا يؤذى أحدًا، وكان كثير الظَّرْفِ من قومٍ سَراة – حتى وقف علينا، ونحن نرى فى وجهه أثر الجِدِّ، ثمّ قال مجتهدًا: واللّه الذى لا إله إلاَّ هو إن الخرْءَ لحلو. ثمَّ واللّه الذى لا إله إلاَّ هو إنَّ الخرء لحلو. ثم واللّه الذى لا إله إلا هو إنّ الخرء لحلو، يمينًا بَاتَّةً يسألنى اللّهُ عنها يوم القيامة! فقلت له: أشهد أنَّك لا تأكله ولا تذوقُه، فمن أين علمت ذلك؟ فإن كنْتَ علمت أمرًا فعلِّمنَا ممَّا علمَكَ اللّه. قال: رأيت الذّبَّان يَسقط على النّبِيذ الحلو، ولا يسقط على الحازِر[1]، ويقع على العسل ولا يقع على الخلّ، وأراه عَلَى الخُرء أكثرَ منه على التَّمْر. أفتريدون حُجَّة أبين من هذه؟ فقلت: يا أبا سَيْفٍ بهذا وشبهه يُعرفُ فضْلُ الشَّيخِ عَلَى الشابِّ"[2].

* * *

"وحدث المبرد قال، قال الجاحظ: أتيتُ أبا الربيع الغنوى أنا ورجل من بنى هاشم فاستأذنّا عليه فخرج إلينا وقال: خرج إليكم

(1) الحازر: الحامض الشديد الطعم.

(2) الحيوان، 3/360- 361.

رجل كريم والله، فقلت له: من خيرُ الخلق يا أبا الربيع؟ فقال: الناس والله، قلت: ومن خير الناس؟ قال: العرب والله، قلت: فمن خير العرب؟ قال: مضر والله، قلت: فمن خير مضر؟ قال: قيس والله، قلت: ومن خير قيس؟ قال: أعصر والله، قلت: فمن خير أعصر؟ قال: غنىّ والله. قلت: فمن خير غنىّ؟ قال: أنا والله. قلت: فأنت خير الخلق. قال: أى والله، قلت: أيسرك أنْ لو تروجت بنت يزيد بن المهلب؟ قال: لا والله لا أدنس كرمى بلؤمها، قلت: على أن لك الجنة، ففكر ساعة ثم قال: على أن لا تلد منى، وأنشد:

تـأبى لأعْصُـر أعـراقٌ مهذَّبَـةٌ ... من أن تناسب قومًا غير أكفاء

فإن يكن ذاك حتمًا لا مردَّ له ... فاذكر حذيف فإنى غير أبّاء"[1]

وهناك نوادر يكون الجاحظ طرفًا فيها، ولكنه لا يفجر الفكاهة بها، بل يقوم بهذا الدور أشخاص غيره فيها، ويبدو دور الجاحظ على أنه ثانوى فى مثل هذه النوادر، كما نرى فى هذه النوادر.

"وقلتُ لأبى عتَّاب: بلغنى أن عبدَ العزيز الغزّال قال: ليتَ أن الله لم يكن خَلَقَنى، وأنى الساعةَ أَعْور. قال أبو عتَّاب: بئسَ ما قال؛ وددتُ والله أن الله لم يكن خَلَقَنى وأنّى الساعةَ أعمى مقطوعُ اليدينِ والرِّجلين"[2].

* * *

(1) معجم الأدباء، 2107/5- 2108.

(2) الحيوان، 168/5.

وقال الجاحظ: "دخلت مع رَوْح بن الطَّائفية حمَّام أفرادارين فى قنطرة قُرَّة وكان رَوح أكثر الناس عبثًا وهزلاً، وإذا فى الحمام شيخٌ أحدبُ لم أر مثل حَدَبته، وإذا هو مطلىٌّ وقد ولَّى وجهَه الحائطَ، وليس فى الحمام غيرُنا وغيرهُ، ونحن شَبابٌ، فقال لى رَوْح: إنِّى عزمتُ على شىءٍ. قلت: وما هو؟ قال: قد صحَّ عندى أنَّ الأحدبَ إذا حكُّوا حَدَبتَه ضَرَطَ، وليس لى بدٌّ من ذلك! فقلت له: وما لكَ فى ذلك؟ قال: واللّه لَضرطَةٌ أحبُّ إلىَّ من بَدْرة! قلتُ: فدونك. فدنا منه وكأنَّه ليس يريدُه، فلمَّا صار بالموضع الذى قد أمكنه فيه ما أراد، وإذا الأحدبُ على حَذَر، ولكأنَّه قد حُكَّت حَدَبتُه ألفَ مرَّة وضَرَطَ ألفَ ضَرطة، وهو يستعمل الحِراسة استعمالَ مجرِّب. فلما كاد رَوحٌ أن ينال ظهره انفتَلَ إليه انفتالةً أسرع من الطَّرْف، ثم لطمهُ لطمةً ما سمعتُ بمثل وقْعتها قطُّ، وسقط رَوحٌ مغشيًّا عليه من الضحك، وقال: أنا بلطْمتِهِ أشدُّ عَجَبًا منِّى بضَرْطته! وولَّى الأحدب وجْهَه إلى الحائط كأنَّه لم يصنع شيئًا"(1).

* * *

وقال الجاحظ: "وكنَّا مرَّةً فى مَوْضع حشمة، وفى جماعة كثيرة. والقومُ سُكوت، والمجلس كبير. وهو بعيدُ المكان

---

(1) البرصان والعرجان، ص409.

منى[1] فأقبلَ علىَّ المكىُّ وقال – والقومُ يسمعون –: يا أبا عثمان مَن أبخل أصحابنا؟ قلت: أبو الهُذَيل. قال: ثمَّ من؟ قلتُ: صاحبٌ لنا لا أسمِّيه. قال الحزامىُّ من بعيد: إنما يعنينى. ثم قال: حَسَدتم للمُقتصِدين تدبيرَهم ونماء أموالهم، ودوام نعمتهم، فالتمستم تهجينَهم بهذا اللقَب، وأدخلتم المَكرَ عليهم بهذا النَّبز تظلِمون المتلِف لماله باسمِ الجود، إدارة له عن شَيَئِه، وتظلِمون المصلحَ لماله باسم البُخل، حَسَدًا منكم لنعمته، فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم"[2].

* * *

"وقلت لغلامى نَفيس: بعثْتك إلى السُّوق فى حوائجَ فاشتريتَ ما لم آمُرْكَ به، وتركت كلَّ ما أمرتُك به! قال: يا مولاى، أنا ناقةٌ وليس فى رُكبتى دماغ!"[3].

وتظهر بعض النوادر التى يكون الجاحظ طرفًا فيها – مداعباته مع بعض الناس الذين لا يعرفهم، ومداعباته مع بعض أصدقائه، ويبدو خلال ذلك قدرته الكبيرة على الردود المضحكة، كما نرى فى هذه النوادر.

---

(1) يقصد الحزامى أحد البخلاء الذين ذكرهم الجاحظ فى كتاب البخلاء.

(2) البخلاء، ص64- 65.

(3) البيان والتبيين، 26/4.

قال الجاحظ: "وقفت يومًا على قاصّ، فأردت الولَع به، فقلت لمن حوله: إنه رجل صالح لا يحب الشهرة، فتفرقوا عنه، فنظر إلىّ وقال: حسبك اللّه!"[1].

*　　*　　*

قال أبو بكر مُحمَّد بن إِسْحَاق: "قال لى إِبْرَاهيم بن مَحْمُود — ونحن ببغداد: — أَلاَ ندخل على عمرو بن بَحْر الجَاحِظ؟ فقلت: ما لى وله؟ قال: إنّك إذا انصرفت إلى خُرَاسان سألوك عنه، فلو دخلتَ عليه وسمعت كلامه، ثم لم يزل بى حتى دخلت عليه يومًا، فقدم إلينا طبقًا عليه رطب، فتناولتُ منه ثلاث رطبات وأمسكتُ، ومرّ فيه إِبْرَاهيم، فأشرت إليه أن يمسك، فرمقنى الجاحظ فقال لى: دَعْه يا فتى، فقد كان عندى فى هذه الأيام بعض إخوانى، فقدمت إليه الرطب فامتنع، فحلفت عليه، فأبى إلاّ أن يبرّ قسمى بثلاثمائة رطبة"[2].

*　　*　　*

"ودخل أحدهم على عمرو بن مَحْبُوب الجَاحِظ فقال: يا أبا عُثْمَان كيف حالك؟ فقال له الجَاحِظ: سألتنى عن الجملة

---

(1) ابن نباتة: سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر دار الفكر العربى، 1383هـ/1964م، ص251.

(2) تاريخ مدينة دمشق، 45/436- 437، وانظر أيضًا: تاريخ بغداد، 12/217.

فاسمعها منى واحدًا واحدًا، حالى أن الوزير يتكلم برأيى وينفذ أمرى ويؤاثر الخليفة الصلات إلىّ، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها، وأجلس على ألين الطبرىّ، وأتكىء على هذا الريش، ثم أصبر على هذا حتى يأتى اللّه بالفرج، فقال له الرجل: الفرج، ما أنت فيه؟ قال: بل أحبّ أن تكون الخلافة لى، ويعمل مُحَمَّد بن عَبْد الملك بأمرى، ويختلف إلىّ، فهذا هو الفرج"[1].

* * *

"وقال المرزبانى: وروى أصحابنا أن الجاحظ صار إلى منزل بعض إخوانه فاستأذن عليه، فخرج إليه غلام عجمى فقال: من أنت؟ قال الجاحظ: فدخل الغلام إلى صاحب الدار فقال: الجاحدُ على الباب، وسمعها الجاحظ، فقال صاحب الدار للغلام اخرجْ فانظر من الرجل، فخرج يستخبر عن اسمه فقال: أنا الحدقى، فدخل الغلام فقال: الحلقى، وسمعها الجاحظ فصاح به فى الباب: "ردَّنا إلى الأول"، يريد أن قوله الجاحد مكان الجاحظ أسهل عليه من الحلقى مكان الحدقى، فعرفه الرجل فأوصله واعتذر إليه"[2].

* * *

(1) تاريخ مدينة دمشق، 434/45.

(2) معجم الأدباء، 2107/5.

"وحدث عبد الرحمن بن محمد الكاتب قال: كان الجاحظ يتقلَّدُ خلافة إبراهيم بن العباس الصولى على ديوان الرسائل، فلما جاء إلى الديوان جاءه أبو العيناء، فلما أراد الانصراف تقدم الجاحظ إلى حاجبه إذا وصل إلى الدهليز أن لا يدعه يخرج ولا يمكنه من الرجوع إليه، فخرج أبو العيناء ففعل به ذلك، فنادى بأعلى صوته يا أبا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك"[1].

* * *

"وكان الجاَحِظ يأكل مع مُحَمَّد بن عَبْد الملك الزيات فجاءوا بفالوذجة، فتولع مُحَمَّد بالجاَحِظ وأمر أن يجعل من جهته مارق من الجام، فأسرع فى الأكل، فتنظف ما بين يديه، فقال ابن الزيات: تقشعت سماؤك قبل سماء الناس، فقال له الجاَحِظ: لأن غَيمها كان رقيقاً"[2].

(1) المصدر السابق، 2106/5- 2107.

(2) تاريخ مدينة دمشق، 437/45.

المصادر والمراجع

أولاً: المصــادر

- **الإسفراييني**

التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين. عنى بعرضه وخرج أحاديثه وعلق حواشيه: محمد زاهد بن الحسن الكوثرى. وعنى بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه: السيد عزت العطار الحسينى. القاهرة، مطبعة الأنوار، ط1، 1359هـ/1940م.

- **التوحيدى**

- أخلاق الوزيرين "مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد". حققه وعلق حواشيه: محمد بن تاويت الطنجى. مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق، 1965م.
- البصائر والذخائر. تحقيق: د. وداد القاضى. بيروت، دار صادر، ط1، 1408هـ/1988م.

- **الجاحظ**

- البخلاء. تحقيق: د.طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط9، 1990م.
- البرصان والعرجان والعميان والحولان. تحقيق: عبد السلام محمد هاورن. بيروت، دار الجيل، ط1، 1410هـ/ 1990م.

- البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، د.ت.

- التربيع والتدوير. عنى بنشره وتحقيقه: د. شارل بللا. دمشق، 1955م.

- الحيوان. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، 1408هـ/1988م.

- رسائل الجاحظ. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة الخانجى، د.ت.

- القول فى البغال. حقق الكتاب وعلق عليه ووضع الفهارس: د. شارل بللا. القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط1، 1375هـ/ 1955م.

- **ابن الجوزى**

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم. دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1412هـ/ 1992م.

- **الخطيب البغدادى**

تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة 463هـ. القاهرة، 1349هـ/1931م.

- **ابن خلكان**

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. حققه: د. إحسان عباس. بيروت، دار الكتب العلمية، دار صادر، د.ت.

- **الذهبى**

سير أعلام النبلاء. أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1402هـ/1982م.

- **ابن عساكر**

تاريخ مدينة دمشق. دراسة وتحقيق: محب الدين أبى سعيد عمر بن غرامة العمروى: دار الفكر، ط1، 1417هـ/ 1996م.

- **ابن قتيبة**

- تأويل مختلف الحديث. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1405هـ/1985م.
- عيون الأخبار. شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له ورتب فهارسه: د. يوسف على طويل. بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

- **المبرد**

الكامل. عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربى، د.ت.

- **المرتضى (أحمد بن يحيى)**

طبقات المعتزلة. تحقيق: سُوسنة ديفيلد فِلْنَر. بيروت، ط2، 1407هـ/ 1987م.

- **المسعودى**

- التنبيه والإشراف. طبع فى مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل، 1893م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. بيروت، المكتبة الإسلامية، د.ت.

- **ابن نباتة المصرى**

سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر دار الفكر العربى، 1383هـ/ 1964م.

- **ياقوت الحموى**

معجم الأدباء. (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب). تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط1، 1993م.

ثانيًا: المراجع العربية

- **أحمد عبد الغفار عبيد (دكتور)**

أدب الفكاهة عند الجاحظ. مطبعة السعادة، ط1، 1402هـ/ 1982م.

- **توفيق الحكيم**

- زهــرة العمــر. بـيروت، دار الكتــاب اللبنــانى، ط1، 1975م.

- فن الأدب. دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، مطبوعات مكتبة مصر.

- **سامى عبد الوهاب بطة**

الحكاية الشعبية دراسة فى الأصول والقوانين الشكلية. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، يناير 2004م.

- **طه حسين (دكتور)**

من حديث الشعر والنثر. دار المعارف بمصر، 1965م.

- **عبد الحكيم بلبع (دكتور)**

- بين الأدب والنقد، مجموعة مقالات وبحوث. جمعها وحررها وقدَّم لها: د. مهدى علام. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985م.

- النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه. القاهرة، لجنة البيان العربى، مطبعة الرسالة، 1969م.

- **عبد الحميد يونس (دكتور)**

الحكاية الشعبية. القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة. مايو 1997م.

- **عبد العزيز البشرى**

المختار. دار المعارف بمصر، ط4.

- **عزة الغنام (دكتور)**

الفن القصصى العربى القديم من القرن الرابع إلى القرن السابع الهجرى. القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، 1991م.

- **محمد رجب النجار (دكتور)**

النثر العربى القديم من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه – مذاهبه – أعلامه. الكويت، ط1، 1996م.

- **محمد كرد على**

أمراء البيان. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355هـ/1937م.

- **نشأت العنانى (دكتور)**

فن السخرية فى أدب الجاحظ. مطبعة السعادة، ط1، 1400هـ/ 1980م.

- **يوسف الشارونى**

الحكاية فى التراث العربى. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2008م.

ثالثًا: المراجع المترجمة

- **ت. ج. دى يور**

تاريخ الفلسفة فى الإسلام. نقله إلى العربية وعلق عليه: د.محمد عبد الهادى أبو ريدة. مكتبة النهضة المصرية، ط5.

- **روجر. م. بسفيلد (الابن)**

فن الكاتب المسرحى للمسرح والإذاعة والتليفزيون والسينما. ترجمة: درينى خشبة. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1964م.

- **رينولد. أ. نكلسن**

تاريخ الأدب العباسى. ترجمة وتحقيق: صفاء خلوصى. بغداد، المكتبة الأهلية، مطبعة أسعد، د.ت.

- **شارل بللا (دكتور)**

الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء. ترجمة: د. إبراهيم الكيلانى. دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، 1961م.

- **كارل بروكلمان**

تاريخ الأدب العربى. نقله إلى العربية: د. عبد الحليم النجار. القاهرة، دار المعارف، ط5، ج3.

- **هنرى برجسون**

الضحك (البحث فى دلالة الضحك). ترجمة: سامى الدروبى وعبد الله عبد الدايم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م.

رابعًا: المجلات والدوريات

- **زكريا إبراهيم (دكتور)**

لماذا نضحك. مقال منشور بمجلة الهلال. القاهرة، العدد الثامن، السنة الرابعة والسبعون، أغسطس، 1966م.

- **وديعة طه النجم (دكتور)**

الفكاهة فى الأدب العباسى. مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث.

صدر للمؤلف

أولاً : فى مجال الدراسات الأدبية

(1) الفكاهة فى مقامات بديع الزمان الهمذانى دراسة تحليلية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(2) بنية السرد فى النادرة نوادر الأعراب فى كتاب عيون الأخبار نموذجًا. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(3) تيار الشعوبية فى أدب الجاحظ. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(4) الجاحظ والدولة العباسية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(5) دراسات فى فنون النثر العربى القديم. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(6) فن المناظرة دراسة فى تطور فن المناظرة حتى نهاية العصر العباسى الأول. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(7) دراسات فى اللغة العربية (تم تأليفه بالاشتراك مع آخرين). دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(8) مسرح الطفل البناء والرؤية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(9) الأدب فى العصر الجاهلى. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(10) النص الأدبى، مغامرة القراءة ومتعة الاستكشاف. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(11) صورة الطفل فى النادرة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(12) صورة المرأة فى النادرة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(13) صورة الحيوان فى النادرة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(14)شخصية المضحك عند العرب حتى نهاية حكم المتوكل "دراسة فنية". دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(15)فن النادرة عند الجاحظ. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(16)سردية المتنبىء وصورة الشيطان فى النادرة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(17)الطفل والطفولة عند الجاحظ. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(18)فى الشعر العربى القديم. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

ثانيًا : فى مجال الإبداع للأطفال

(1) مغامرات الحمار الكسلان – المحتال مسرحيتان للأطفال. الهيئة العامة لقصور الثقافة. إقليم القناة وسيناء. فرع ثقافة شمال سيناء.

(2) غابة الأجداد ومسرحيتان كوميديتان أخريان للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(3) حُلم سندريلا ومسرحيات كوميدية أخرى للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(4) قصص جحا المضحكة. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(5) أجمل حكايات الحيوانات. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(6) مغامرات الثعلب مكور (قصص مضحكة للأطفال). دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(7) القاضى الصغير وأوبريتات أخرى للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(8) أصدقاء الفراشات وأوبريتات أخرى للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(9) الفأر المخترع وأوبريتات أخرى كوميدية للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

(10)جحا والمجنون ومسرحيات أخرى كوميدية قصيرة عن جحا للأطفال. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

ثالثًا: دواوين شعر

(1)ديوان الناس كم فيهم عجب "قصائد فكاهية". دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر بالإسكندرية.

الفهـــــرس